إبراهيم السمرى

الجنى العاشق

مجموعة قصصية

طبعة أولى إبريل 2019

بطاقة الكتاب

مسابقة شاعر / أديب النيل والفرات

الدورة الرابعة – إبريل 2019

الكتاب الفائز بالمركز الأول

فرع القصة القصيرة

عنوان المؤلف	الجنى العاشق
المؤلف	إبراهيم السمرى
التصنيف	مجموعة قصصية
رقم الإيداع القانونى	2019 - 7882
رقم الإصدار الداخلى	373 الطبعة الأولى إبريل 2019
عدد الصفحات	92 صفحة



رخصة مزاولة مهنة:58365 – سجل تجاري: – 13242 / 2017 – بطاقة ضريبية: 35—01—572
عضو عامل باتحاد الناشرين المصريين رقم 941 لسنة 2018
هاتف:01011256943 – 01116202218 – 01202541192 تليفاكس:020554372901
nagyegy200064@gmail.com النـيـل والـفـرات
alnilwaalfourat@gmail.com alnilwaalfourat
المقر الرئيسي:ج.م.ع محافظة الشرقية – العاشر من رمضان – مجاورة 13 – امام سنتر الـ13 – عقار 304



إهداء

إلى روح والدتي التي غذّت روحي بيقين الإيمان، وملأت سماء فكري ببنات الخيال..!!

إلى زوجتي وابنتي اللتان سرقت من أوقاتهما الكثير كي أقرأ أو أكتب..!!

إلى طلابي وأحبائي ممن يعشقون العربية آدابها وفنونها..!!

****

الجائزة

ما كان ليصدق نفسه حين مسَّت البشرى شغاف قلبه، وعزف الخبر على أوتار مسامعه، لولا أن رأى زملاءه يهرعون إليه ، تتلألأ بالفرحة أعينهم ، وتشرق بالبهجة أسارير وجوههم، وتلهج بالتهنئة ألسنتهم ، وتبارك في غبطة أيديهم الممدودة للمصافحة..!

اغرورقت بالدموع عيناه اللتان طالما تطلعتا في شوق ذائب إلى هناك ، واخضوضرت روحه المقفرة التي أمضّها الشوق واللهفة إلى السقيا من غيث تلك البقاع النورانية المقدسة.

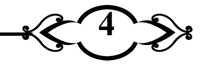
ساءل نفسه في دهشة :

ـ أحقاً ما سمعت ؟! أفي يقظة أنا ؟ أم في أحلام الكرى؟! أبهذه البساطة يتحقق حلم كنت أظنه بعيد المنال ؟! كم أنت عظيم يا إلهي ..!! كم أنت كريم ورحيم بعبادك..!!

خر ساجداً شاكراً لأنعم ربه .. غاب عن الوجود حيناً من الوقت .. مستغرقاً في سجوده يتمتم بدعوات كأنما أعدها لمثل هذا اليوم ، أفاق من نشوة عبادته ليجد زملاءه قد انفضوا من حوله، وعاد كل إلى عمله ، كانت عقارب الساعة تشير إلى الثانية بعد الظهر .. أدرك أن فترة خدمته قد انتهت ، لم يترك موطن العمل إلا بعد أن اطمأن من وجود من ينوب عنه في الخدمة، استأذن في الدخول على المأمور ليشكره على عظيم معروفه؛ إذ كان سبباً مباشراً في ترشيحه لهذه المنحة الكبرى والجائزة العظمى.

قال بعد أن أدى التحية ، والسعادة ترقص على أسارير وجهه:

ـ أشكرك يا سيدي .. صنيعك هذا لن أنساه ما حييت ..!!



اعتدل المأمور في جلسته ، ثم قال وعلى ثغره ابتسامة هادئة:

ـ ليس لي فضل أيها الرجل الطيب في هذه المنحة ، إنما الفضل لله الذي وفق مدير الأمن لاختيارك ، ثم لك لأنك بالفعل تستحقها، وأجدر الناس بها ، وإلا لما اختارك الله لزيارة بيته ..!

ـ أحقاً يا سيدي أن هذه الرحلة علامة على محبة الله لي ورضائه عني ؟!

ـ وهل تشك في ذلك ؟! أنت رجل طيب محبوب من رؤسائك وزملائك، ومجتهد في عملك، وتتقي الله في سلوكك، فلم لا تكون هذه الجائزة علامة رضا ومحبة من الله لك؟!

ـ أشكرك يا سيدي فلولاك ما تحقق حلمي .

ـ بل اشكر الله الذي وفقك إلى حسن طاعته يا حاج "مصطفى" .

أدى التحية ثانية واستأذن في الخروج ، لعله يطير إلى أهله فيثلج صدورهم بهذا النبأ السعيد، مضى في طريقه يحث الخطى ويقول في نفسه :

ـ لقد جاءت الجائزة في الوقت المناسب، لَكَمْ تمنيتها، ولَكَمْ دعوت الله أن يمن عليّ بها..!! وها هو الأمل المرجوّ يتحقق ، وها أنا ذا على مشارف الرحلة إلى الأرض المقدسة.. إلى الرحاب الطاهرة .. إلى البيت العتيق.. إلى مثوى الرسول الأعظم .. إلى مهبط الوحي ومبعث النور .. إلى مهوى الأفئدة والأرواح .. إلى حمى اللائذين والعائذين..!!

أشكرك يا إلهي على كل نعمة أنعمت بها عليّ، وأوليتني إياها .. لك الحمد يا وليّ النعم..!

وصل البيت في خفة النسيم، ورشاقة العصافير، وقلبه مفعم بالبهجة ، ووجهه مشرق بالغبطة.. تلقّت العائلة البشرى الندية

بقلوب ظامئة إلى السعادة ، فوقع الخبر من نفوسهم موقع الماء من ذي الغلة الصادي ، تلألأ البيت بأضواء الفرح ، وانتصبت في سمائه سحائب الرضا، وقناديل الهناء.

أحس برغبة ملحة في أن يخلو إلى نفسه بعضاً من الوقت ، دخل حجرته ، استلقى على سريره، ألقى بنفسه في مهب رياح الذكريات عساها أن تحمله إلى بعيد .. حيث الطفولة البريئة والصبا الناضر، والشباب المزهر .. هنالك تداعت إلى رأسه الذكريات، ولاحت لعيني خياله صورة الماضي الأليم ، تذكر يوم أن تركه شقيقه الأكبر في موقف عصيب ، راحلاً إلى بلاد بعيدة.. هارباً من كل التزام.. متنصّلاً من كل مسئولية تجاه أسرته.

كان "مصطفى" آنذاك طالباً في المرحلة الإعدادية يحتاج إلى من ينفق عليه ، فضلاً عن والديه المريضين اللذين كانا في أمس الحاجة إلى الرعاية والحماية .. آثر والديه على نفسه.. لم يجد بدا من ترك التعليم والبحث عن عمل يعينه على مسئوليته الجديدة .. اجتهد وبذل ما في وسعه من جهد ، كان حريصاً ألا يدخل بيته مثقال ذرة من حرام ..!

دبت الحياة من جديد في أوصال الوالدين ، وأُبْرِئَ كلاهما من مرضهما ، وتطلع الشاب الوقور إلى الزواج ، لكنه بسبب ضيق ذات اليد من جهة، ورغبته في التقرب إلى الله من جهة أخرى آثر الزواج من امرأة أرملة معها طفلان لم يتجاوز أكبرهما الخمس سنوات .

غدا للطفلين أباً حنونا، ولأمهما زوجاً رءوماً ، ولوالديه ابناً بارّاً رحيماً، وعندما أنجبت له زوجه أبناءه الثلاثة لم يفرق في المعاملة بين أحد من أولادها الخمسة ، ظلت السعادة ترفرف بجناحيها حول هذه المملكة الصغيرة حتى أشار عليه بعض قرنائه بضرورة الالتحاق بوظيفة حكومية، فلم يجد أمامه سوى وزارة

الداخلية ، قدم مسوغات تعيينه ، وما هي إلا أسابيع قلائل حتى تسلم عمله كشرطي في إدارة المرور.

بدت الحياة في ظل الوظيفة كئيبة ، الراتب الشهري يلفظ أنفاسه الأخيرة في اليوم العاشر من كل شهر ، كل ضرورات البيت من اليوم العاشر إلى آخر الشهر على النوتة .. لفحته الحياة بهجيرها وسعيرها ، ولطمته بشظفها وقحطها حتى ضاقت عليه الأرض بما رحبت ، وما أشد ألمه حين يرى ابناً من أبنائه يتطلع إلى ما في أيدي أولاد الجيران ثم لا يجد إلى الوصول إليه سبيلا ، كم تاقوا إلى اللحم وإلى أنواع عديدة من الفاكهة بيد أن راتبه لم يسعفه في تحقيق مآربهم، فلا يملك حينئذٍ إلا أن يوصيهم بالصبر.

زاره أحد زملائه ذات مرة فرأى شظف العيش ، ومرارة الحرمان يضربان بأطنابهما في البيت، فسأله في عتاب :

ـ ما هذه الحياة الجدباء التي تعيشها يا صديقي ؟!

أجابه ـ وفي حلقه غصّة ، وفي صدره تغلي مراجل الحزن والأسى ـ :

ـ إنها الحياة في ظل الوظيفة يا صديقي .. لو تعلم كم فكرت في ترك العمل الحكومي الذي ما ذقت من ورائه سوى البؤس والشقاء والحرمان .

ـ وماذا تعمل بعد أن تترك وظيفتك؟

ـ أعمل في القطاع الخاص ..!

ـ وماذا تعمل في القطاع الخاص ؟ بائعاً في أحد المتاجر ؟ خفيراً على إحدى العمارات؟! أم عاملاً في المعمار ؟ كل هذه الأعمال لا تليق بك ، ستكون خادما وعبدا لكل من يوليك نعمته، أما أنت في وظيفتك فسيد نفسك ، وهب أنك مرضت هل أصحاب هذه الأعمال يستطيعون أن يتحملوك في مرضك ؟ إنهم لا يعرفون الرجل إلا إذا

كان بكامل قوته أما إذا مسّه نصب أو وصب تنكروا له ، وربما تخلصوا منه ، ونفضوا من سيرته أيديهم .

ـ كلامك صحيح ، ولكن....!

قاطعه في حزم:

ـ ليس هناك لكن .. إن في يديك ثروة يجب أن تحسن استغلالها.

ـ كيف ؟!

ـ لا عليك .. ولكن موعدنا الليلة بعد العشاء عندي في البيت لأشرح لك كيفية استغلال هذا الكنز.

مضى الضيف إلى بيته تاركا زميله يفكر فيما دار بينهما من حديث ، وفي الليلة التالية ذهب "مصطفى" إلى بيت زميله ، وبعد تجاذب لأطراف الحديث فيما بينهما فهم "مصطفى" أن ثمة خدمة ليلية أجرها كبير ، وعليه أن يستثمر طاقته ويعد نفسه لهذه الخدمة الليلية مع زملائه.

وفي ليلة جفا سماءها القمر، وتجهمت في فضائها النجوم ، خرج "مصطفى" مع ثلاثة من زملائه يرتدون زيهم الحكومي ، وقد أقنعوه بأنهم في عمل رسمي ، وبسبب من طيبته البادية في سيمائه ، وسذاجته المعهودة عليه صدقهم ، وبذل ما في وسعه لإرضائهم حتى يأخذوه معهم كل ليلة .. نصبوا أمتعتهم ووسائلهم على الطريق في موضع خلا من العمران ، وطفقوا يوقفون السيارات القادمة من القاهرة والمتجهة صوب الإسكندرية .. ظن السائقون بأنها لجنة مرورية تبحث عن المخالفات ، وكان على المخالفين منهم أن يبسطوا إليهم أيديهم بما فرض عليهم من إتاوات أو إكراميات ، وإلا سحبت منهم رخص القيادة ورخص السيارات وحررت ضدهم مخالفات لا حصر لها .

بعد منتصف الليل انتهت خدمتهم المزعومة ، وعادوا أدراجهم بعدما تقاسموا فيما بينهم حصيد ليلتهم ، آب كل طائر إلى وكره في هدوء كأن شيئاً لم يكن .. رجع "مصطفى" إلى بيته في تلك الليلة منشرح الصدر ، قرير العين ، واثق الخطى .. ولم لا؟ ألم يكن نصيبه في ليلة واحدة يفوق راتبه الشهري ..؟!

تعاقبت الليلات ، وتوالت الخدمات .. وبات الرفاق لا يثبتون على طريق ، كل ليلة في مكان مختلف عما قبله ، بدا أثر الثراء عليهم وبخاصة زميلهم "مصطفى" الذي رقت حواشي بيته الجديب، وازدهرت مرابعه بعد قحط طال مكثه حتى كاد أن يأكل جدرانه، وفقر كاد يلتهم أهله.. نضرت الوجوه ، ولانت الأجساد ، وامتلأت البطون ، وناءت الثلاجة بما تحمله من ألوان اللحوم وأصناف الفاكهة الطازجة ، وانتصب التلفاز على منضدة فاخرة كبيرة، وازدهت الحوائط بألوانها الزيتية المبهجة..!

لم يعكر صفو هذه الحياة الناعمة المنسابة كخرير الجدول العذب إلا صرخة أطلقها ذات ليلة فيما هو خارج من حمام البيت ، هرع الجميع إليه فإذا به ملقى على الأرض وقد شُد إلى وثاقه لسانه فلم يعد قادراً على الكلام ، وتشنجت في لحظة أطرافه فلم يستطع الحراك ، تنقلوا به من طبيب إلى طبيب ، وتوالت الاستشارات ، لكن أحداً لم يستطع أن يشخص حالته فيما هو مفتحة عيناه ومصغية أذناه ، يرى ويسمع لكنه عاجز عن الوصف باللسان أو الإشارة .

في سكون الليل تهجع الأطيار ، وتنام أعين السمار ، وتهدأ الشوارع والطرقات إلا من زفرة حشرة ، أو مواء هرة ، أو نباح كلب يتردد صداه من بعيد في غياهب الدجى فيمزق بين الحين والحين حجاب الصمت البهيم .. لكنه ظل ساهراً مستيقظاً برأسه ، يصرخ من أعماقه كلما برّح به الألم ، ويضرع إلى ربه بلسان قلبه أن يكشف عنه ضره.

ظل طريح الفراش ستة أشهر حتى اضطرت العائلة إلى بيع أثاث البيت والأجهزة الكهربائية كالثلاجة والتلفاز والمسجل حتى الملابس الجديدة بيعت في سبيل معالجة رب الأسرة، ولكن دونما جدوى .

ذات ليلة أخذته سنة من النوم فرأى شيخا وقوراً ، ذا وجه مشرق ، ورأس مستدير ، وشعر أبيض ، ولحية بيضاء ، وعينين صافيتين لامعتين ، وفم عريض ، وأنف متناسق مع وجهه المستطيل يربت على كتفه في حنان ، ويقول :

ـ ها أنت توشك على التحرر من قيدك .

رد عليه بلهفة :

ـ من أنت ؟ وماذا تعني؟

ـ لقد أدخلت على أهلك مالا جمعته من غير حله ، فلن تبرأ حتى ينفق على مرضك مقدار ما جمعته .

ـ أي حرام تقصد ؟

ـ أنت تعرف ما أقصد ، سترد إليك عافيتك ولكن لا تعد إلى ما كنت عليه .

استيقظ "مصطفى" فإذا بصوت المؤذن يصدح بأذان الفجر ، فهب ناهضاً من رقدته ، وإذا بجسده يطاوعه ، قام واقفا وخرج من حجرة نومه متجها نحو الصالة فوجد في جسده خفة كأنما نشط من عقال، نادى على زوجه وأولاده كي يستيقظوا لصلاة الفجر فإذا بصوته قوي شجي ، فسجد شكراً لله .

استيقظ كل أفراد العائلة ، وأقبلوا إليه فرحين يهنئونه على شفائه .. قص عليهم قصته والرؤيا التي رآها في منامه ، حمدوا الله على نجاته من السقوط في هاوية الحرام ، ونصحوه بألا يخرج ثانية مع أولئك الرفاق حتى وإن عضهم الجوع ، وطحنهم الدهر بكلكله.

كان عليه أن يكيف حياته على قدر راتبه ، ويعيد الدفة من جديد إلى ما كانت عليه قبل الصعود إلى الهاوية ، تنازل عن كل الكماليات ، وأعانته على هذه الحياة العجفاء الخشنة زوج صبور ، تتقي الله في زوجها وأولادها ..!

مرض والده المسن فكان يقتطع من قوته وقوت أولاده كي يوفر له الدواء ، اشتاق أبوه ذات يوم صيفي قائظ إلى التفاح ، الحر شديد ، والرطوبة العالقة في الجو تكتم الأنفاس ، والفقر قيد في الرقاب ، ومذلة في النفس .. لم يستطع ألا يعده .. ذهب إلى عمله ، طلب سلفة على راتبه ، لكن رئيسه المباشر لم يوافق عليها لكثرة ديونه ..خرج من عمله في الثانية بعد الظهر متأففا ضجرا ، حزينا مكروباً ، كيف له أن يعود إلى أبيه خاوي الوفاض ؟! والإنسان في شيخوخته كطفل صغير لا يعرف الأعذار ، ركب الحافلة من عمله إلى بيته شارد اللب، مكروب النفس ، يقول في نفسه :

ـ لن أعود إلى البيت قبل أن أشتري التفاح لأبي، ولكن من أين آتي بثمنه؟ أيرضى أحد زملائي أن يقرضني بعد أن أبلغت عنهم، وكنت سببا في توقيع الجزاء على نفسي وعليهم؟

حقيقة أنا لم أفعل ما فعلت إلا من قبيل الحرص عليهم ، كل ما كان يهمني أن أحميهم من نفوسهم الجشعة الطاغية ، لابد أنهم راجعوا أنفسهم وحاسبوها وتبين لهم صدق نيتي ، ولكنهم قاطعوني في العمل فلو كانت نفوسهم صافية من جهتي ما قاطعوني ، إنهم يهربون مني كلما اقتربت منهم ، لا .. لن أذهب إليهم ، ولكن ما السبيل يا رب ؟ لقد أوصدت دوني الأبواب ولم يبق لي سوى بابك، فلا تردني خائباً ، تحدرت دمعتين ساخنتين على وجنتيه فأطرق برأسه كيلا يراه أحد ، ربت الشيخ الجالس إلى جواره على كتفه في حنان ، وقال في هدوء:

ـ هون عليك يا أخي ، ودع الأمر لله ..!



ثم مد إليه يده بمبلغ من المال ، وقال له :
ـ خذ هذا المبلغ ، وأحضر التفاح الذي طلبه أبوك ، ولا تيأسن من رحمة الله ..!

هنالك جحظت عيناه ، التفت إلى الرجل فإذا هو نفس الرجل الذي رآه في منامه في آخر ليلة من مرضه ، أُلجم لسانه من هول المفاجأة ، وتسمّر في مقعده كأنما شُلّت من جديد جوارحه، غادر الشيخ مقعده في هدوء ونزل من الحافلة ، بعد لحظات تحركت أعضاؤه ، وانطلق لسانه ينادي على السائق يدعوه إلى الوقوف ، نزل بسرعة كي يلحق بهذا الرجل ليسأله من يكون ؟ وكيف علم بما جعله مهموما مكروباً ؟!

لكنه حينما نزل لم يجد أحداً أمامه على مرمى بصره في كل الاتجاهات ، وضع المال في جيبه واتجه إلى السوق ليشتري التفاح الذي طلبه أبوه ، وعاد إلى البيت والدهشة منقوشة على ملامح وجهه، يقول : ـ سبحان الله ..! قادر وغيره لا يقدر .

أحس ببرد اليقين يسري إلى قلبه ، وتسربلت نفسه بسربال الثقة ، وأيقن بأن الله معه، فتعلق قلبه منذ ذلك الحين بربه وأصبح لا يتوقف عن الدعاء لسانه، ولا ينقطع عن الذكر قلبه، ولا تسأم من العبادة روحه ..!

هدأت رياح الذكريات ، وانتبه من شروده على صوت الباب يقرع برفق ، التفت فإذا بزوجه الرءوم تطل عليه كأنها الشمس في وضاءتها، والبدر في صفائه، والنسيم العليل في رقته ، قطعت عليه خلوته لا لشيء إلا لتذكره باقتراب موعد صلاة المغرب.. هب من رقدته.. حياها بابتسامة حنونة ، وقام يتوضأ ، خرج لأداء الصلاة في المسجد منشرح الصدر، راضي النفس ، هانئ البال ، يجد في قلبه حلاوة الإيمان، سمع الإمام يقرأ قوله سبحانه وتعالى : (وَمَا جَعَلْنَا أَصْحَابَ النَّارِ إِلَّا مَلَائِكَةً وَمَا جَعَلْنَا عِدَّتَهُمْ إِلَّا فِتْنَةً لِلَّذِينَ كَفَرُوا

لِيَسْتَيْقِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ وَيَزْدَادَ الَّذِينَ آَمَنُوا إِيمَانًا وَلَا يَرْتَابَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ وَالْمُؤْمِنُونَ وَلِيَقُولَ الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ وَالْكَافِرُونَ مَاذَا أَرَادَ اللَّهُ بِهَذَا مَثَلًا كَذَلِكَ يُضِلُّ اللَّهُ مَنْ يَشَاءُ وَيَهْدِي مَنْ يَشَاءُ وَمَا يَعْلَمُ جُنُودَ رَبِّكَ إِلَّا هُوَ وَمَا هِيَ إِلَّا ذِكْرَى لِلْبَشَرِ) فانهمرت دموعه ، حتى إذا ما انتهى من صلاته خرج يقول في نفسه ويردد : ـ حقاً ، صدق ربي : (وما يعلم جنود ربك إلا هو ..!!) .

******

الجِنِّيُّ العاشق

في منزل متواضع يبعد قليلاً عن منازل القرية تعيش "سمية" الشابة الأرملة الحسناء التي لم تتجاوز عامها الثلاثين مع طفلها الذي لم يتعد الخامسة من عمره ، توفي زوجها منذ عام إثر حادث غامض ، تقدم إليها بعد انقضاء عدتها رجال كثيرون لكنها قررت أن تهب حياتها لطفلها الصغير كي تراه في يوم من الأيام ملء الأعين والأسماع ، ورجلاً فذًّا ممن يشار إليهم بالبنان..!

لم تنتظر أن يمد إليها أحد يد المساعدة لاسيما في هذا الزمن الذي تقطعت فيه وشائج القربى، وانشغل كل فرد بحياته الشخصية، خرجت للعمل في إحدى المطابع المتواضعة ، ولأنها تخاف على طفلها الصغير كانت تأخذه معها ، وعندما تنقضي ساعات العمل تحمله ثم تعود به إلى منزلها..!!

في ظاهر الأمر أنها تخشى على ابنها ؛ ومن ثم تأخذه معها رغم أن صاحب العمل حذرها أكثر من مرة ألا تصطحبه معها كيلا يشغلها عن أعمالها ، لكن في جوهر الأمر أنها كانت تتقي به نظرات الذئاب البشرية التي كانت تمتد في غير ما ورع أو حياء إلى قوامها الرشيق تكاد تلتهمه التهاماً ، أرادت أن تصد نظراتهم بهذا الطفل الذي يؤكد لهم أنها أم تهمها الأمومة أكثر من اهتمامها بأنوثتها ، كانت تواري أنوثتها خلف هذا الطفل الملازم لها عسى أن تستحيي الأعين المتفحصة ، ولعل إحساسها بالضعف ـ لأنها أنثى ـ جعلها تستمد من رجولته المبكرة قوة تزيح بها جبال الخوف والضعف الرابضة في عقلها ، والجاثمة فوق صدرها..!

ومهما يكن من أمر فإنها لا تتخيل حياتها بدون طفلها ، وربما تأخرها في الحمل هو ما جعل عاطفة الأمومة لديها جياشة إلى حد كبير؛ إذ ظلت أربع سنوات من بداية زواجها دونما حمل ، ثم رزقت بهذا الطفل الذي أصبح نور عينيها ، ومصدر قوتها ، وملاذها الآمن..!

تذهب إلى عملها في السابعة صباحاً ، ثم تعود إلى بيتها في الرابعة عصراً وقد أنهكها التعب ومع هذا لا تتوانى عن إعداد الطعام لها ولطفلها.. يتناولان سوياً وجبة الغداء ثم يجلسان في استرخاء يشاهدان التلفاز ، وقد يخرج الطفل ليلعب مع أقرانه ، ويتركها وحيدة في البيت ، وما أصعب الوحدة ..! وما أفدح الرهبة ..! ولكن سرعان ما تزحف الشمس نحو الغروب فتتجهم السماء ، ويسدل الليل ستائره على الكون فيعم الصمت، ويخلو الطريق من المارة .. تطل من النافذة تنادي طفلها الذي يجد نفسه وحيداً بعد أن يتركه الأولاد ويذهبون إلى بيوتهم فيعود يجر ساقيه المجهدتين على غير رضا ، يتمنى لو امتد النهار به إلى آخر العمر كيلا يكف عن اللعب.

يتناولان سويا وجبة العشاء، ويشاهدان التلفاز بعضاً من الوقت ثم يأويان إلى مخدعهما ليلقيا عن كاهلهما عناء نهارهما الثقيل وآلامهما الممضّة ، ما إن يضع الواحد منهما رأسه على سريره حتى يغوص في أعماق من السبات اللذيذ ، فلا يشعران إلا ببصيص من ضوء النهار يتسلل عبر النافذة المطلة على الطريق .

كانت الحياة ـ رغم ما فيها من شظف العيش ، والفقر الذي يكدر صفوها في بعض الأحيان ـ تمضي في هدوء وأمان حتى كان يوم الثلاثاء المشئوم وتحديداً في الساعة الخامسة بعد العصر، كان الطفل في ذلك الوقت يلعب مع الأولاد بعيداً عن البيت ..!

سمعت "سمية" صوتاً ينبعث من حمام البيت ، في بادئ الأمر ظننته قادماً من المطبخ فتخيلت أن طبقا من الأطباق أو وعاءً

من الأوعية قد سقط على الأرض ، فلم تعر الصوت انتباهها ، وإذا بالصوت يعلو ، أخذتها رعدة ، اتجهت نحو المطبخ .. وجدت كل شيء في موضعه.. أحست بحركة غير عادية في الحمام ، استجمعت قواها .. فتحت الباب فإذا بشاب أمامها يتفحصها بعينين تتقدان شرراً ، لم تتمالك أعصابها ، صرخت بكل ما لديها من قوة ثم سقطت على الأرض ، أسرع الجيران نحو الصوت ، ورأى الطفل جموعاً من الناس تهرول نحو بيته .. أطلق ساقيه للريح يسابق الجميع كي يطمئن على أمه التي تركها في البيت وحيدة منقطعة من الأهل والأحباب.

أفاقت على جمع من النسوة يحطن بها ، وقد عصبن رأسها التي شجت حينما سقطت على الأرض ، ورحن يتهامسن ، ويتغامزن ، ويهمهمن ، يردن أن يعرفن سر صراخها المفاجئ لكنها لمحت في عيون بعضهن أطلال شماتة ، وفي عيون أخريات بوادر تشفٍّي ..!!

ولا عجب؛ فهي الغيرة التي جبلت عليها بنات حواء ، كل واحدة من هؤلاء النسوة كانت تخشى أن يقع زوجها في شباك حبها، ولم لا؟! أليست أصغر منهن سناً ؟! وألين منهن قدًّا ؟! وأروع منهن جمالا ؟! وأرشد منهن عقلاً ؟! وأمضى منهن عزيمة؟!

جميعهن يعرفن هاته الحقائق التي تمرّر عليهن حياتهن ، لكنهن يخفينها بين ضلوعهن، وقد تفضحهن عيونهن ، وهذا ما قرأته "سمية" بفراستها التي لا تخيب، فأرادت ألا تريحهن، فأخذت طفلها وضمته إلى صدرها ، وهبت واقفة من جلستها حتى تنهض النسوة ويذهبن إلى بيوتهن .

لم تشأ أن تقذف الرعب في قلب صغيرها فكتمت عنه خبرها، وظل سرها حبيس صدرها وحدها .. يا لها من أم قوية راسخة كالجبال، ورقيقة كهبات النسيم ساعة الأصيل ، تحسبها في بعض



الأحيان تملك قلباً من حديد ، ثم تراها في أحايين أخرى حمامة أليفة ، أو قطة وديعة ..!

تكرر المشهد الذي رأته من قبل يوم الثلاثاء التالي في نفس التوقيت الساعة الخامسة بعد العصر، خرج نفس الشاب من الحمام لكنه في هذه المرة تكلم بصوت غريب ، أخبرها بأنه يحبها ويريد الزواج منها ، تمالكت أعصابها في هذه المرة ، وأرادت أن تثبت له أنها أقوى منه ولن يستطيع إخافتها ، قالت بعد أن استجمعت كل قواها:

ـ من أنت؟!

رد وقد تحجرت عيناه :

ـ عاشق ولهان .

ـ أنا لست أرى أمامي إلا لصا أو بلطجيا يتهجم على بيوت الناس .

ـ لا يا جميلة الجميلات ، لست لصا ، ولا بلطجيا ، ولكني أهيم بك منذ زمن طويل .

ـ أنت كاذب ، أنا لم أرك قبل اليوم .

ـ ولكني أراك في كل حين ، أراك وأنت تقفين أمام المرآة طويلاً تتباهين بجمالك ، وأراك وأنت تغتسلين وتتحسسين أعضاءك في زهو وخيلاء.

ـ كيف تراني أيها الحقير ..؟!

ـ أراك من حيث لا ترينني ..!

ـ اسمع أيها الوغد .. إياك أن تظن أن بنات الناس لعبة بين يديك ، إن لم تخرج من هذا البيت بالتي هي أحسن فسوف أقطعك إرباً إرباً .

ضحك ساخراً من ضعفها التي تحاول جاهدة أن تواريه خلف كلماتها ، ترددت أصداء الضحكة في البيت فاقشعر بدنها .. اقترب

منها أحست كأن لهيبا أو لفحة من النار تقترب منها، صرخت في وجهه وأغمضت عينيها ثم تهاوت على الأرض كشجرة باسقة اجتثت من فوق الأرض.. ثم غابت عن الوعي ..!

عاد طفلها كعادته مع المساء فوجدها صريعة ممدة على الأرض، نادى عليها بأعلى صوته، تذكر النسوة عندما رششن على وجهها بعضا من العطور الكحولية ، فأخذ قنينة العطر وجعل يرش على وجهها وينادي حتى دبت في جسدها الحياة من جديد .. فتحت عينيها فإذا بطفلها الجميل هو الذي يناضل وحده من أجل إعادتها إلى الحياة ، ضمته إلى صدرها بقوة وجعلت تبكي بكاء مرا .

كان عليها أن تستشير الناس في أمر هذا الجني الذي يظهر لها فجأة في وضح النهار ، كيف تتعامل معه ، هل تترك له البيت وتبحث عن مكان آمن ؟ هل سيتركها وشأنها بعد ذلك؟! أم سيطاردها مادامت على قيد الحياة ؟!

أشارت عليها إحدى النساء بالذهاب إلى الشيخ "درويش" زاعمة أنه الوحيد الذي يقدر على تقييد هذا الجني ، على الفور انتقلت إلى بيت الشيخ "درويش" الذي أخبرها باسمها واسم طفلها والطلب الذي جاءت من أجله، كبّرت وهللت، وبسملت ، ثم قالت:

ـ طلباتك أوامر يا سيدي ..!

طلب الشيخ بعض الطلبات الغريبة التي تباع عند العطارين ، ثم أمرها بإقامة صلحاً ـ وهو ما يعرف بحفلة الزار ـ في بيتها لطرد العفاريت ومردة الجن منه ، شعرت بالطمأنينة، وأسرعت تعد الطلبات وتجهز لحفل الزار ، تلك الحفل التي تقرع فيها الدفوف، ويحدو المنشد بأغانٍ غير مفهومة ، ويدور الحاضرون حول موقد من النحاس ، وضعتْ فيه جمرات من النار نثرت فوقها أنواع شتى من البخور، وبعض الحبوب، وعلى الأنغام تتمايل الأجساد يمنة ويسرة، وتتصاعد دقات الدفوف حتى تخترق الآفاق، هنالك يتشنج

من به مس ثم يقع على الأرض، ويتحدث بصوت غير صوته، فيسألونه عن طلباته ، فيأمرهم بذبح ديك ذي أوصاف غريبة، فيعلنون السمع والطاعة ثم يذبح الديك، ويراق دمه على الممسوس فيهدأ الجني الذي مسه، ويعود الممسوس إلى حالته الطبيعية.

هكذا تتكرر أفعالهم في كل حفل ، وهذا ما حدث في بيت "سمية" التي ظنت بأنها تحررت نهائياً من ذلك الشبح المخيف بعد هذا الحفل المهيب ، لكن الحقيقة غير ذلك ، إذ تكرر خروج الجني في نفس الموعد عارضاً عليها الزواج مرة ثانية ، كان عليها أن تظهر له العين الحمراء لترهبه حتى لا يطمع في ضعفها ، وقفت شامخة كالطود العظيم ، ثم قالت بملء فيها :

ـ لن أدعك تنتصر علي أيها الجني الأحمق .. سأظل أجاهدك حتى يحدث أحد الأمرين: إما أن تقتلني ، وإما أن أقتلك ..!

تمعّر وجه الجني، وانتفخت أوداجه، وزفر زفرة لفحت وجهها الناعم الرقيق ، ثم قال:

ـ وأنا أحذرك .. إن لم توافقي على طلبي فسأقتل ولدك .

قالت وقد غلى الدم في عروقها :

ـ وأنا أحذرك ، وأقول لك : إن مسست شعرة من ابني فسأجعلك عبرة لعالم الإنس والجن..!!

زمجر ، ثم اختفى فجأة ، كان عليها ألا تنتظر حتى ترى ولدها صريعاً بين يديها ، انتقلت على الفور إلى نقطة الشرطة لتبلغ عن شخص يهددها بقتل ولدها ، استمع الضابط إلى قصتها فما كان منه إلا أن انفجر في الضحك ، إنه لا يصدق .. وحق له ألا يصدق وهو الرجل الذي لا يفتأ يبحث عن الأدلة المادية لأية جريمة ، كيف له مطاردة قاتل خفي أو مجرم غير مرئي ، إن هذه القصص والحكايات مكانها في عقول العوام القدامى الذين درجوا على تناقل

الخرافات والأساطير ، ثم بدا له أن يوجه إليها بعض النصائح فاتجه إليها وهو مسند ظهره إلى الخلف في زهو ثم قال :

ـ أنا لا أرى هذا الشيء الذي تتحدثين عنه إلا ولداً من الشباب المتسكعين يدخل بيتك عبر نافذة الحمام ، أو أي فتحة في البيت ، ونصيحتي لك أن تغلقي منافذ البيت جيداً .

ـ أفهم أنك لن تفعل شيئاً ..!

ـ وماذا تظنين أني فاعل ؟ هل مهمتي أن أحرس كل فرد في منطقتي ؟ اذهبي إلى بيتك أيتها السيدة وحافظي على نفسك وطفلك، وغلّقي أي منفذ يمكن أن يتسلل منه أي لص أو بلطجي.

خرجت من عنده تجر أذيال الخيبة بعد أن فقدت آخر أمل لها في سبيل حمايتها ، تذكرت وهي ماضية إلى بيتها أنها نسيت أن تقول له بأن المجرم الذي يهددها سيكون موجودا عندها في الساعة الخامسة من يوم الثلاثاء ، فعادت إليه ورجته بكل وسائل الرجاء والاستعطاف، وطلبت منه أن يحضر اللقاء القادم ، لم يجد الضابط بدا من الإذعان لطلبها فوافق على مضض .

في اليوم المرتقب وفي الساعة الموعودة كان الضابط موجوداً في بيت "سمية" مع خمسة من رجال الأمن الأشداء ينتظرون ضيفاً مجرماً بعد أن أوصدوا كل منفذ من منافذ البيت ، في الساعة الخامسة عصفت في البيت رياح شديدة ، ودوامات من تيارات الهواء الساخن جديرة بأن تجتث أعتى الأشجار من أصولها، كان الأثاث يتبعثر في كل اتجاه لشدة العاصفة .. احتضنت "سمية" طفلها وتشبثت به.. تساقطت الصور المعلقة على الجدران، وانقلب ما في البيت رأساً على عقب .. فجأة انتزع الطفل من بين يديها .. صرخت من أعماق فؤادها الملتاع:

ـ ابني .. ابني..!! ارتفع الطفل في الهواء حتى بلغ سماء الحجرة، ثم نزل حتى اقترب من الأرض ثم ارتفع ثانية أمام أعينهم

جميعا حتى لامس سقف الحجرة ، وشبت به النار فيما هو معلق في الجو، لا تزال الأم تصرخ ، والضابط مذهول هو ومن معه يشعرون بأنهم في كابوس من الأحلام المزعجة، أو كأنهم يشاهدون فيلما من أفلام الرعب المجسمة ، بعد لحظات هدأت العاصفة وسقط الطفل على الأرض أمام أعينهم ، بعد أن صعدت روحه إلى بارئها ، أكبت الأم على طفلها وغابت عن الوجود .. أقبل الجيران على صراخها المتواصل ، حطموا الأبواب والنوافذ ، وصلوا إلى موقع الحادث الأليم لكن بعد فوات الأوان.

لم يستطع الضابط أن يحرر محضراً بالحادث إذ القاتل ليس له أوصاف تذكر ، بل إن أحداً من الشهود لم ير القاتل .. لقد تمت جريمة القتل أمام أعينهم لكنهم لم يروا القاتل الخفي، هي وحدها التي تعلم أوصافه .. ولكن.. ما الجدوى ؟! كيف السبيل إلى الإمساك به ومحاكمته محاكمة عادلة؟!

سرت أنباء "سمية" وطفلها في القرية مسرى النار في الهشيم، يرددها القريب والبعيد ، العدو والحبيب ، الشامت والمشفق، ويتساءلون في حيرة :

ـ ما الذي دفع الجني إلى هذه الجريمة النكراء؟ فتسمع من يقول:

ـ لقد فتنت سمية بجمالها شياطين الجن كما فتنت من قبل رجال الإنس.

وقد تسمع آخر يقول:

ـ لقد كانت ترفض الزواج لأنها كانت على علاقة بهذا الجني منذ زمن فلما حدث بينهما خلاف قتل ولدها ، وربما يكون هو الذي قتل زوجها لكي يستأثر بها .

كثرت الأقاويل .. لكن "سمية" لم يعد يهمها كلام الناس ؛ لأنها فقدت عقلها منذ ذلك الحين، وهامت على وجهها في بلاد الله

الواسعة، تراها سائرة ذاهلة ، حافية القدمين ، عليها أطمار بالية، وشعرها مهدّل، وعيناها ذابلتان زائغتان لا تستقران على موضع ، ووجهها الشاحب أجهده السير المتواصل، ولسانها لا يفتر عن ترديد هاته الكلمات :

ـ منصور .. منصور .. انت فين يا حبيبي .. انت فين يا ضنايا، أنا أمك تعال بسرعة، ثم يغالبها البكاء فتنزوي في ركن قصيٍّ كخرقة بالية لا يحركها إلا أصوات الأطفال وهم يطاردونها:

ـ المجنونة أهه ..! المجنونة أهه ..!

فتجري أمامهم خائفة مذعورة كأنها شاة عجفاء تهرب من ذئاب ضارية ، فلا يردهم عنها إلا صوت أحد الرجال ذوي النخوة والشهامة يزأر فيهم ، فيعودون أدراجهم ، وتظل ماضية حتى تبتلعها الظلمة ..!

****

المســافـر..

أصعب شيء على المرء أن يصنع المعروف ثم يتبين له أنه وضعه في غير أهله، وأصعب منه أن يصنعه في أهله ثم لا يلقى منهم سوى التنكر والجحود ، والتجاهل والجفاء، بل القسوة والظلم اللذين يهضمان حقه ، ويكسران خاطره ، ويقصان جناحيه فلا يقوى بعدها على التحليق ثانية في فضاء الأمنيات ..!!

هكذا حكم عليه الأهل ، بعد خمس سنوات عجاف قضاها في غربة كالحة ، وعمل شاق دءوب لا يتناسب ومؤهلاته العلمية .. كان عليه أن يلقي بشهاداته الجامعية في أقرب سلة كي يتمكن من الحصول على هذا العمل ، كان عليه أيضاً أن يتنازل عن بعض مبادئه ، وأن ينحِّي كبرياءه جانباً ، وأن يميل مع الريح حيث مالت حتى لا ينكسر عوده ، ويتبدد في لحظة من اللحظات أمله.

في غربته كان يزهد في كل متع الحياة .. يزهد في التنزه .. يزهد في أطايب الطعام ، وأفخر الثياب ، ومع هذا كان حريصاً على هندامه وأناقته البسيطة التي لا تلفت إليها الأنظار، ولكنها أناقة من نوع خاص، أناقة رجل مسلم حريص على نظافة مظهره، قدر ما يحرص على طهارة جوهره، ونقاء سريرته ..!

كان يؤثر أهله بكل راتبه إلا جزءاً ضئيلاً يكفي حاجته الضرورية في غربته، يرسل هذا الراتب كل أربعة أشهر بحوالة بنكية باسم والدته التي يكن لها كل احترام وتقدير ؛ ولم لا؟! أليست هي أمه التي أُمِر ببرها ؟! أليست هي أمه التي ضحت بشبابها، وأفنت عمرها في سبيل تربية أولادها بعد أن قضى والدهم نحبه ؟!

بلى .. لقد كانت جديرة بكل احترام .. غير أن شيئاً غامضاً ـ لا أحد يعلم كنهه ـ يجعلها تفضل عليه أشقاءه ، بل يجعلها حانقة

عليه ، وضجرة منه في كثير من الأحيان إن لم يكن في كل الأحيان، وهو الذي يكاد يوقد لها أصابعه شموعاً لترضى عنه.

كانت ولا تزال حنونة رحيمة بأخيه الذي يصغره بعامين وبشقيقتيه، إلا أنها كانت شديدة القسوة معه منذ كان طفلا صغيراً، ولولا قامته الفارعة التي ورثها عن أمه، ولولا أن قسمات وجهه الخمري دليل صدق على امتزاج ملامحها وملامح أبيه فيه، ولولا الشبه الجلي بينه وبين إخوته لظن ـ على الأقل فيما بينه وبين نفسه ـ بأنه غريب عنهم من سوء المعاملة التي تعامله بها ..!

لا يزال يذكر تلك الليلة التي طردته فيها من البيت ، كان عمره حينئذٍ خمسة عشر عاماً، خرج هائماً على وجهه يتخبط في ليل حالك لا يدري إلى أين تقوده قدماه في ذلك الوقت المتأخر من الليل ، والليل في القرى ذو رهبة تشيب لها الرءوس ..! والليل في الشتاء كمارد مهول ترتجّ بين ضلوعها من هوله القلوب ..!

سرى والدموع تنهمر على وجنتيه حتى وجد نفسه أمام بيت صديقه الوحيد الذي لا يكاد يعرف من الدنيا سواه ، والذي يكبره بثلاثة أعوام تقريباً، وقف أمام الباب حائراً لبضع دقائق لكنه في لحظة أخذ القرار.. قرع الباب قرعاً خفيفاً كمن يحذر أن يسمعه أحد ، لكن هاجساً سرى في خفية إلى قلب صديقه الشاعر الذي اعتاد السهر ليلاً ليقتطف من الدهر ساعات الصفاء ، وأوقات الهدوء كي يهيم في عالم رحب من الأفكار والأحلام والرؤى ..!

هب صديقه من جلسته .. اتجه صوب الباب .. فتحه بسرعة فإذا بأحب الناس إلى قلبه ماثلاً أمامه ، شاخصاً إليه بصره ، وقد كست وجهه غلالة من ذل اليتم ، ومسكنة الضياع ، ووجل الخائف الوجم.. أخذه من يده .. أدخله في هدوء إلى غرفته ..جعل يستمع إليه بإصغاء حتى عرف قصته ، هدّأ من روعه ، ثم وعده بالذهاب إلى والدته في الصباح ليكلمها في هذا الأمر، لكن "أيمن" استعطفه

وألح عليه أن يذهب به إلى بيت عمته في مدينة تبعد عن قريتهما بعشرة أميال..!

وعده صديقه بتنفيذ رغبته في الصباح .. قدّم له عشاءً لكنه أبى زاعماً أنه تناول وجبة العشاء قبل أن يطرد من البيت، مع أن لونه الشاحب، وبريقه المنطفئ يدلان على أنه لم يذق طعاماً منذ الصباح ..! هكذا كان دائماً حيياً عفيف النفس..!

أعدّ له مكاناً للنوم .. ورغم أن المكان بسيط متواضع إلا أنه كان عامراً بالدفء ، مفعماً بالحنان والرضا والسكينة .. بات ليلته يفكر فيما سيئول إليه حاله، ويقوده عقله إلى عقد مقارنة بين والدته الصلبة العنيدة القاسية ، ووالدة صديقه اللينة المتسامحة الرحيمة التي لا تفرق بين أحد من أولادها الثمانية بل تعاملهم جميعاً معاملة قائمة على الحب والرحمة والاحترام .

من ثم كان لا يفتأ يغبط صديقه على هذه الأم التي لا يعدو حديثها أن يكون همساً، وإذا غضبت يكفي أن توجه إلى من غضبت منه نظرة عتاب تبث فيها كل معاني اللوم والتثريب فلا يملك إلا أن يطرق حياءً منها ، وسرعان ما يأتي إليها معتذرا.

لا يزال هذا المشهد القاتم الكامن في ذهنه، القابع في مخيلته يقض مضاجع ذاكرته ، ويطفو بين الحين والحين على سطح عقله كلما أثاره داعٍ من دواعي الظلم الذي يحيق به بين آونة وأخرى.

عاد من غربته ليجد والدته قد أنفقت كل أمواله التي أرسلها طوال سنوات الغربة في بناء بيت من طابقين ، وراعه ما وجده من ظلم مجحف حين علم أن أمه قد كتبت له شطر البيت ولشقيقه الأصغر الشطر الثاني ، ولم يقف الأمر عند هذا الحد بل أقامت لابنها الأصغر الذي لم يغترب ولم يذق في حياته مرارة الغربة بعض المشروعات التجارية إلى جانب وظيفته .

أحس "أيمن" كأن طعنات غدر نفذت إلى صدره ، لقد ذهب حصيد سنوات الغربة أدراج الرياح.. ثم أضحى بلا وظيفة ، وبلا مشروع يبدأ به حياته ويقتات من ورائه ، وليس معه مال يعينه على الزواج الذي لابد منه حتى يكتمل دينه .. كان عليه ألا يستسلم لليأس ، وألا يخلد إلى الندم ، ولهذا بدأ حياة جديدة من الكفاح المتواصل ، لم ينتظر الوظيفة كعادة كثير من الشباب ، وعمل مندوبا للمبيعات في إحدى الشركات كي يستطيع أن يجهز شقته ، ويوفر التكاليف اللازمة لتأسيس عش صغير للزوجية ..!

مرت السنوات تلتهم شبابه التهاماً يكد فيها ويشقى حتى حقق أمنيته وتزوج ومنَّ الله عليه بطفلة جميلة ملأت عليه حياته، لكنه لم يسلم من أذى أمه أو أخيه الذي فشل في كل المشروعات التي جاءته على طبق من ذهب .

وقف "أيمن" إلى جوار أخيه ، لم يألُ جهداً حتى انتشله من وبال الديون التي أغرق فيها نفسه، وأعانه على الزواج ، واختارت الأم أن تعيش في كنف ابنها الأصغر؛ إذ إن قلبها لم يميز من البشر سواه ، ذاقت الأَمَرَّيْن من زوجته المتسلطة.. تعرضت للضرب والإهانة أكثر من مرة ، وابنها المدلل لا يملك وسيلة لردع زوجته؛ وكيف يردعها وهو لا حول له ولا قوة؟! لقد أذعن لزوجته منذ البداية، وبدا أمامها مغلوباً على أمره ، مسلوبةً منه إرادتُه.

بدت الأم القوية ، ذات القلب الحجري الصلد ضعيفة ذليلة مهيضة الجناح أمام زوجة ولدها الذي طالما أحبته ، ودللته ، وأعطته حقوقاً لم يكن أهلًا لها ، ولم يقدم في حياته ما يجعله جديراً بها.

لم تجد بُدّاً من اللجوء إلى ابنها الأكبر ذي القلب الحنون لتعيش في رحابه ، وتحتمي به من أذى زوجة الابن المتسلطة ، أشفق عليها ، وآواها ، ورجاها أن تظل معه بقية عمرها ، وأقسم



ليضعنها في عينيه، وكان بالفعل عند قسمه .. نسي ما كان منها حين قست عليه ، وحين حكمت عليه بتلك القسمة الجائرة ، نسي جفاءها وقسوتها وأذاها، وطفق يعاملها بحنان أكثر مما كان يعاملها به ليعوضها عن أيام الشقاء والإهانة التي تعرضت لها .

لكن قلبها لا يزال معلقا بابنها الآخر ، كانت تفتعل المشكلات مع زوجة ابنها الأكبر، وتختلق المعاذير لتهرب من هذا الجو الهادئ الحنون ، ولتخرج من حمى الابن البار الذي تستكثر عليه أن يثاب على برها ..!

عادت من جديد إلى الابن الأصغر ترتشف الذل ارتشافاً ، كأنما هو قدرها الذي لا تستطيع منه فكاكاً ، اضطرت زوجة الابن إلى أن تضع زوجها بين أمرين: إما أن يطلقها، وإما أن يوفر لها مسكناً بعيداً عن أمه التي لا تطيق الزوجة رؤيتها .

كعادته أذعن لمطالب زوجته ، وانتقل بها إلى محافظة نائية رغم توسلات أمه ، ونحيبها المتواصل ، لم تجد الأم سوى يدي ابنها الأكبر تمتد إليها في رفق لتمسح دموعها المتدفقة كالشلالات المندفعة، ولتربت في حنان على كتفها ، تطلعت إليه في حياء كأنما تريد أن تعتذر إليه، وتطلب منه أن يسامحها .. تجمد الكلام في فمها .. تحاول أن تحرك لسانها لكنه لا يطاوعها ، ارتعش فكّاها ، وجنح الفم جهة اليمين ثم تجمدت أعضاؤه ، حاولت النهوض من مقعدها فلم يستجب لها شقها الأيسر.. سقطت على الأرض ، صرخ "أيمن" :

ـ أمي .. ما بك؟!

نظرت إليه بعينين دامعتين نظرة بائسة كادت تمزق قلبه .. حملها هو وزوجته ووضعاها على السرير .. اتصل على الطبيب الذي أكد له أن المرض الذي ألم بها شلل نصفي ناشئ عن صدمة عصبية، قرر أن يعالجها حتى لو اضطر إلى بيع كل ما يملك ، طال مرضها، حتى اضطر إلى بيع أثاث منزله ، وكل الكماليات ، بل كل

الضروريات ، حتى أصبحت شقته خاوية على عروشها ، اقترض من زملائه وأصدقائه ، وتنقل بها من طبيب إلى طبيب ، ويضرع إلى ربه في جوف الليل حتى شفاها الله ، وبرئت من علتها ، وعادت إليها عافيتها.

التفتت إلى ابنها الذي لم يذق طعم النوم طوال فترة مرضها إلا سويعات معدودة ، ونظرت إليه بعينين مملوءتين بالرضا ، ثم قالت :

ـ ربنا يسعدك ، ويرضى عنك يا "أيمن" يا بني ، انت تعبت معايا كتير .

رد " أيمن" وعلى ثغره ابتسامة وضيئة :

ـ ربنا يعافيك ، ويتم شفاك ، ويطيل لنا في عمرك يا أمي .

ـ سامحني يا ابني على كل حاجة وحشة عملتها معاك .. أنا آذيتك كتير، وظلمتك كتير، وأعطيت تعبك وشقاك لواحد ما يستهلش..الله يسامحه.

ـ على كل حال هو أخي ، وواجب عليّ أن أساعده .

ـ ربنا يبارك لك في صحتك ، ويرزقك، ويعوض عليك يا ابني.

التفت إلى شقته التي أصبحت كالطلل، وإلى زوجته التي باعت حليها لتساند زوجها، وابنته التي شارفت دخول المدرسة، والديون المتراكمة .. ضاعف ساعات العمل ، لم يعد لديه وقت لرؤية ابنته ، ولا أن يطالع صفحة في كتاب من الكتب وهو المولع بالقراءة منذ نعومة أظفاره .

لم يجد مفراً من التفكير ثانية في السفر إلى إحدى الدول العربية كي يتمكن من تحسين مستوى معيشته ، وقضاء ما عليه من دين ، تردد على مكاتب السفر ، في كل مكتب يترك سيرته الذاتية ، وينتظر ريثما يتلقى منهم مكالمة هاتفية ..!



ذات نهار تلقى مكالمة من أحد المكاتب يستدعيه لإجراء مقابلة شخصية ، نهض على الفور.. جهز نفسه وانتقل إلى القاهرة.. اجتاز الامتحان بجدارة ولفت إليه الأنظار، بل سحرهم بلباقته ، وفطنته وذكائه ، وخبرته في مجال تخصصه..عرضوا عليه الراتب لكنه رفض ، رغم حاجته الشديدة لهذا السفر ، هو يدرك أن إمكاناته أكبر بكثير من هذا الراتب المقرر له ، وهو يعلم أنهم مقتنعون به أيما اقتناع؛ لأنهم وجدوا فيه ضالتهم المنشودة .. تركهم وعاد إلى قريته .

تلقى مكالمة ثانية وثالثة وعاشرة من نفس المكتب في كل مرة يزيد الراتب بمقدار مائة جنيه حتى وصل الراتب إلى حد يرضيه ، وقف أمام المرآة .. هاله ما رأى ؛ لقد وجد الشيب تسلل إلى صفحتي رأسه كخيوط ضوء الصبح حين تتسلل إلى صفحة الليل البهيم فما تلبث أن تقضي عليه وتحتل مكانه ، تنهد طويلا ، وقال في أسى :

ـ رحمك الله يا أبا العلاء ، لقد صدقت حين قلت :

تعب كلها الحياة فما أعـ   جب إلا من راغب في ازديادِ

هاأنذا قد جاوزت حد الأربعين ، أ مازالت أمامي الفرصة لأبدأ حياتي من جديد؟! أما زلت قادراً على العطاء؟!

هل كنت محقا حينما فكرت في السفر ؟! ما كان أغناني عنه، لو.. سبحانك يا ربي لك حكمة ومشيئة نعجز عن فهم أسرارها..!

هيأ نفسه للسفر ، أخذ حقيبته ، ودّع زوجته ، وابنته ، ووالدته التي ذرفت في لحظة الوداع دموع الندم ، وشيعته عيون الأصدقاء ، ومضى في طريقه يسير، وفي عينيه بريق أمل جديد .. حتى غرق في أمواج البشر المتلاطمة ، وغاب عن أعين مودعيه لكنهم مازالوا يرونه بعيون قلوبهم ، ولازالت ألسنتهم تلهج بالدعاء له

إخوة في الوطن

في إحدى عربات القطار المتجه إلى الإسكندرية كانت جلسته على مقعد يجاور إحدى النوافذ، وقد بادر إلى هذا المكان رغم الزحام لأكثر من سبب، أولها : أنه يعاني من أزمة ربو تتفاقم في الزحام ، فإذا ما كان إلى جوار النافذة أمكنه أن يتفادى الاختناق الناجم عن تلاطم الأنفاس الحارة المتصاعدة داخل العربة ، وثانيها: أنه من خلال جلسته بجوار النافذة يستطيع أن يجول ببصره فيما يتراءى له من مساحات مترامية الأطراف من الخضرة التي تبهج النفوس، وتُسْكِر الأرواح، تلك الخضرة التي تعيد الإنسان في أي زمان ومكان إلى ذكرياته الأولى حينما كان ذَرًّا في صلب أبيه آدم، وهو يتنعم في الجنة قبل أن يهبط إلى الأرض، وثالثها : أنه يرغب في إيجاد مهاد لرأسه إذا هفت إلى النوم، أو ألجأها مرغمة إليه هرباً من ثرثرة أحد الركاب الفضوليين.

هو كهل ربعة ليس بالطويل ولا بالقصير، يبدو في الأربعين من عمره ، غير أن صمته ووقاره، وخيوط الشيب التي قد ألمت برأسه، وبعض التجاعيد التي خطتها عوامل الزمن في وجهه تجعلك تظنه فوق الستين ..!

أرسل بصره إلى نهاية العربة قبل أن تتكدس بالركاب .. جعل يتأمل في هدوء ووقار تلك الرؤوس والوجوه الكثيرة المنتصبة فوق أعناقها والتي تبدو متشابهة إلى حد كبير في شكلها وتركيبها لكنها مع هذا تبدو مختلفة ومتباينة في كل شيء ، مختلفة في اللون ، مختلفة في التقاطيع، مختلفة في الحال ، مختلفة في التفكير؛ فهذا وَجْهٌ ذو بشرةٍ سوداء ، وآخر ذو بشرة سمراء ، وثالث ذو بشرة

بيضاء تضرب إلى الصفرة، ورابع ذو بشرة بيضاء تضرب إلى الحمرة، وهذا رجل ذو أنف أقنى ، وآخر ذو أنف أفطس، وتلك خنساء تتناغم تقاطيعها وتتلاحم مكونة لوحة فنية مبهرة ، وهذا شخص مشرق الوجه منبسط الأسارير ، وآخر مكفهرٌّ ، وثالث مطرق في الأرض ، ورابع شارد اللب متبلد الأسارير لا تبدو جلية ملامحه ، أو بالأحرى لا تستطيع أن تتنبأ إن كان شخصاً انعزالياً ، أو كان شخصاً اجتماعياً .

حرّك رأسه المستدير يمنة ويسرة ثم قال متمتماً :

ـ سبحان الله .. قادر وغيره لا يقدر .. لكل وجه من هذه الوجوه مهما تشابهت في الملامح بصمة تميزه ، ويعرف بها صاحبه بين ملايين البشر .. لله في خلقه شئون.

في العربة تختلط الأصوات، فلا تكاد تميز كلمة مما يقال ، إنها الهمهمة ، بل الدويّ أو الطنين، لكن صوتاً انبعث فجأة من نهاية العربة يشق عباب الطنين ، عرف الجالسون والواقفون ـ من غير أن تشرئبَّ إليه أعناقهم ، وتخترق الحواجز صوبه أبصارهم ـ بأن هذا الصوت المنبعث صوت شحاذ يستجدي في ذلة وانكسار، أعرضوا ونأى كل واحد منهم بجانبه، وأظهر التشاغل من كان قبلُ في غير شُغُلٍ، ومضى الشحاذ يمر على المقاعد فلا تمتد إليه بالعطاء يد ، كأن المقاعد قد عريت من جالسيها والمتكئين عليها ، أو لكأن من فوق المقاعد ومن حولها خُشُبٌ مسنَّدة .. يدٌ واحدة هي التي امتدت إليه في هذه العربة بورقة مالية لا تعرف قيمتها إذ كانت ملفوفة بإحكام حتى لا يعلم أحد مقدار الصدقة التي تصدق بها صاحبها.. !

إنه الرجل الذي حرص على الجلوس إلى جوار النافذة ، رمقه الركاب بعيون حائرة كأنما قد فعل شيئاً عجباً ، ونظر إليه الشاب الجالس أمامه بامتعاض كأنما قد اقترف جرماً عظيماً وإثماً مبيناً، ثم قال له وقد ارتسمت على سحنته علامات الضجر :

ـ لماذا أعطيته ؟!
رد الرجل وعلى وجهه أمارات الدهشة :
ـ أليس من السائلين ؟!
ـ بل قل من الأفاكين الكذابين .
ـ الله أعلم .. أنا لم أفتش عن قلبه .
ـ يا سيدي هؤلاء أغنى منك ومني ومن كل هؤلاء الركاب ، إنهم يحترفون التسول لأنه أسهل وسيلة في اجتلاب المال .. وأنت بكل أسف تساعدهم على التمادي في جريمتهم.
ـ ومن أدراك ، فربما يكون أحدهم في حاجة حقيقية لهذا المال ، لماذا تعمم يا أخي ؟ الناس ليسوا جميعا سواء.
سكت الشاب لأنه شعر بعدم جدوى الحديث مع رجل يخالفه معتقده .. فتح آخر الصحيفة وجعل يمسح عناوين الأخبار بعينيه كمن يبحث عن ضالته ، استوقفه خبر صغير مضمونه أنه تم القبض على المجموعة الإرهابية التي استولت على محل الذهب المملوك لأحد الأقباط ، قال معقباً على الخبر :
ـ المفروض أن تكافئهم الحكومة بدلا من معاقبتهم .
وافقه الشاب الجالس إلى جواره الرأي، وتدخل في الحوار ثالث، وتدرج الحديث إلى بعض أحداث الشغب الدائرة بين بعض المسلمين وبعض الأقباط في صعيد مصر .
أحس الرجل الصامت الجالس بجوار النافذة أن عليه دوراً في تصحيح بعض الأفكار المظلمة عند هذه المجموعة من الركاب .. قال في حكمة الشيوخ ، ويقين العارفين :
ـ يا سادة .. ليس الأمر كما تزعمون .. ليس من حق أي مسلم أن يغتصب حقوقا ليست له حتى لو كان صاحب هذه الحقوق على دين غير دينك، بل حتى لو كان كافراً على غير ملة أو دين، لو كان ما تقولون به حقا لاستحل رسول الله أموال الكفار المودعة

كأمانات عنده، لكنه ـ صلى الله عليه وسلم ـ ليلة الهجرة ترك علي بن أبي طالب يبيت في فراشه ليرد الأمانات إلى أهلها ، ومن هم أهلها ؟ إنهم الكفار الذين آذوه ، وعذبوا أصحابه ، وأخرجوه وأصحابه من أحب البلاد إلى قلبه.. يا سادة .. ألم تسمعوا أن رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ قال: " من آذى ذميا فأنا خصمه ، ومن كنت خصمه خصمته يوم القيامة"؟!، ألا تعرفون أنه ـ صلى الله عليه وسلم ـ أوصى أصحابه فقال :"إذا افتتحتم مصر فاستوصوا بالقبط خيراً فإن لهم ذمةً ورحماً"؟!

رد الشاب في حدة :

ـ الأقباط الذين أوصى بهم الرسول εغير القبط الموجودين الآن ، لقد كانوا متسامحين غير متعصبين ولا حاقدين .

ـ ومن قال لك يا أخي بأنهم متعصبون حاقدون .. ؟! ها أنت ثانية تعمم في كل أمورك، وتخلط الأوراق؟!

نظر إليه أحدهم بعين الريبة وقال :

ـ هل الأخ مسيحي ؟!

أجاب في سماحة وهدوء :

ـ كلا يا أخي .. بل مسلم يعرف دينه جيداً.

ـ لماذا إذن تدافع عنهم ؟!

ـ يا أخي أنا لا أدافع عن أحد ، ولكني أريد أن أصحح مفهوماً خاطئاً راسخاً في عقولكم .

ـ وما هذا المفهوم الخاطئ الراسخ في عقولنا ؟

ـ ألسنا يا سادة نغضب إذا ما وصفنا أهلُ الغرب بالإرهاب ؟! إننا نغضب لأنهم لا يقولون الحقيقة ، بل يفترون ، لأنهم رأوا شخصاً مسلماً آثر مواجهتهم بالإرهاب فأطلقوا الأحكام معممة على كل المسلمين .. هكذا الآخرون يغضبون حينما تطلقون الأحكام عليهم في غير حكمة ولا روية .

سأقص عليكم يا سادة موقفاً حدث لي يؤكد كذب ما تلوكه ألسنتكم ، ويخيم على عقولكم، كنت ـ ذات يوم ـ عاملاً في إحدى شركات القطاع الخاص، كان شبابي يغرني ويستفزني ، فأتحرك في خفة هنا وهناك كطائر رشيق ، كنت أثناء العودة إلى بيتي أجوب القطار من أوله إلى آخره ثم أعود من حيث بدأت دون كلل أو ملل ، أقفز تارة فوق الأرفف المنتصبة ، والمعدة للحقائب ، وتارة أقف عند الباب وأمد إحدى ساقي في الهواء عابثاً وساخراً من سرعة القطار غير آبه لشدة الهواء ، وفجأة حدث ما لم يكن في الحسبان؛ فبينما القطار يسير بسرعته المعهودة انعطف الطريق فجأة، كنت حينئذٍ واقفاً أمام الباب غير مكترث.. وجدتني أطير كريشة في الهواء ثم سقطت على الأرض ، أدركتني عجلات العربة الأخيرة دهمت ذراعي، و قضمت إحدى قدميّ لم أفق من غيبوبتي إلا بعد ثلاثة أيام .. انهارت في لحظة آمالي، واكتنفني الجزع حين رأيتني طريح الفراش ، وحول سريري وقف أطفالي الخمسة وأمهم يبكون.

خرجت من المستشفى بعد ثلاثة أسابيع لأجدني مفصولاً من العمل، تحدثت إلى مدير الشركة واستعطفته لكنه لم يأبه لأمري .. زعم أن شخصاً آخر قد حل محلي في العمل ، ولأن الشركة لا تؤمن على العاملين فيها فقد وجدتني بلا راتب أو معاش ، ذهبت إلى شركة أخرى أبحث عن عمل فعرضني مديرها على طبيب الشركة فقرر بأني لست صالحاً للعمل ، إذ إن نسبة العجز تجاوزت الستين بالمائة ، فسألت الطبيب وهل لي من عملية جراحية في ذراعي تجعلني أفضل حالاً وقادراً على العمل ، أخبرني الطبيب بأن هذا ممكن لكن تكاليف العملية باهظة، سألته: ـ كم تقدر التكاليف ؟ أخبرني بغير اهتمام : ـ عشرون ألفاً ..! ثم تركني ومضى إلى عمله.. نزل الخبر على رأسي كالصاعقة ، عشرون ألفاً لا أملك منها سوى عشرة جنيهات في جيبي، وهاأنذا بلا وظيفة أو عمل أقتات منه أنا وأولادي ، عشرون

ألفا تجعلني أمارس حياتي الطبيعية فلا يتأفف مني أحد من أصحاب الأعمال ، لكن أين حدودها ؟ كيف السبيل إليها ؟!

نصحني أحدهم بأن أعرض حالتي على الناس بعد الانتهاء من صلاة الجمعة في المسجد الكبير بالقرية ، منعني حيائي وتعففي أن أقف بين الناس ضعيفاً أستحثهم على البذل كمن يتسول .. تولى أحد الأصدقاء الأمر وأناب عني في المهمة حين وجدني مترددا ، تبرع البعض، وتجهم البعض ، كانت الحصيلة في هذه المرة مائتي جنيه، شعرت بخيبة الرجاء.. عدت إلى بيتي كاسف البال محطم الآمال.

عرض عليّ أحدهم أن أذهب إلى عمدة القرية وأطلب منه يد المساعدة ؛ فلديه من البيوت والأطيان ما يجعل مثل هذا المبلغ غير عسير عليه ، وربما دعا أعيان القرية للمساهمة في هذا التبرع ، ذهبت إلى العمدة وشرحت له قصتي فما كان منه إلا أن استدعى بعض أعيان القرية وعرض عليهم الأمر فتمتم بعضهم ، وتبرع البعض ، وأحجم آخرون بحجة أن هذا المبلغ ربما يدفع في عملية كهذه ثم لا تنجح .

بلغ ما تم جمعه في هذه الليلة ألف جنيه ، مع العلم أن كل واحد من هؤلاء يستطيع أن يتبرع بالمبلغ كله من غير أن يؤثر عليه في شيء لكنه البخل والطمع الذي جبل عليه كثير من الناس..!!

ضاقت عليّ الأرض بما رحبت ، ذهبت إلى قرية أخرى أستجدي الناس في حياء يكاد يذيب لحم وجهي ، فمنهم من يعطي عطاء الحريص ، ومنهم من يعرض كأن لم يسمع ، ومنهم من يتطاول بالسباب، ويرسل اللعنات كأنني جئت أستلب منه أمواله .

أصابني القنوط ، جلست في بيتي منعزلاً كارها ملاقاة الناس، ولأن الأولاد في حاجة إلى طعام فرطت فيما جمعته ، وقلت في نفسي هم أولى مني بالحياة ، تربص بي الشيطان .. استولى على مجامع

أفكاري .. لم يعد للحياة قيمة بعد أن أصبحت عاجزاً وعبئاً على غيري، لاحت لي فكرة الانتحار كما يلوح الماء العذب للظامئ في جوف الصحراء المهلكة .

أقدمت على الانتحار أكثر من مرة بعد أن زاغ فكري بين ضلالات الأوهام ، وحاد قلبي عن طريق الإيمان ، أصبح الجزع رفيقي ، واليأس طريقي .. غير أني في كل مرة تفشل خطتي لسبب من الأسباب .. ندبت حظي العثر، ولعنت الموت الذي يفر مني كما يفر الماء من بين أصابع قابضه.

ذات مرة ، نمت أمام القطار لعله يكون أكثر جرأة من الحبل المتدلي في سقف الغرفة، والذي أغضى حياء وعجز عن أداء مهمته فبدا هشا باليا ، أو يكون أسرع في تنفيذ المهمة من شريط الأقراص التي ابتلعتها فأدركوني بغسيل للمعدة ..!

أقبل القطار يزمجر من بعيد ، وصوت بوقه العاوي يرن في سمعي كأغاريد الفرح تداعب القلب فيهتز طرباً .. كنت أستحثه بكلمات في نفسي :

ـ هيا .. أيها القطار الكسول أنجز مهمتك ، أَلَمُ لحظةٍ ، ولا كل لحظة ، انشقت الأرض عن رجل أقبل نحوي مهرولا ، انتشلني من مرقدي قبل لحظة من وصول القطار .. احتضنني بعنف وظل رابضاً مكانه حتى مر القطار بجوارنا كانت المسافة بيننا وبينه لا تزيد عن متر واحد .. سألني الرجل في ذهول :

ـ ماذا تفعل يا رجل ؟ هل جننت ؟!

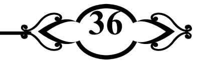
أجبته في أسى مرير :

ـ لا يا سيدي بل أصبحت عاقلا .

ـ كيف أصبحت عاقلا وتلقي بنفسك في مهاوي الردى ؟!

ـ هروباً من الشقاء ، وبحثاً عن السعادة .

ـ وهل تظن السعادة في الموت ؟



- إن في الموت راحة .

- لو كان في الموت راحة أو سعادة كما تقول لفر إليه حكماء العالم، احمد الله يا رجل أن كتب لك النجاة ، وعصمك من العذاب الأبدي ، ألا تعلم أن من قتل نفسه خارج من رحمة الله مخلد في النار؟!

استحييت منه ومن نفسي حين لامس كلامه شغاف قلبي ، وتحركت في صدري بقية من نوازع إيمان قديم ، أحسست ببرد الإيمان يسري إلى قلبي كما يسري الماء إلى الأرض العطشى فتمتصه في شوق .

قصصت عليه حكايتي ، وموقف الناس إزائي ، فابتسم في رقة وقال :

- لا عليك .. سأدلك على رجل لن يخذلك .

- بالله عليك يا رجل هات عنوانه .

- هو قسيس في كنيسة في المدينة المجاورة ، ستذهب إليه وتعرض عليه قصتك ، وسيقوم بالواجب .

- قسيس؟!

- نعم ..!

- وما المقابل الذي يطلبه ؟!

- لا شيء.. هذا الرجل يخدم بدافع الإنسانية والأخوة في الوطن.

أخذت العنوان وعدت إلى بيتي مطمئن النفس ، قرير العين ، وفي اليوم التالي ذهبت لمقابلة القسيس .. شرحت له ظروفي ، وعرضت عليه حكايتي ، فنظر إليّ ثم ابتسم في هدوء ، وسألني عن عنوان سكني ، ثم طلب مني أن أتركه مدة أسبوع حتى يدبر أمره ، عدت إليه في الموعد المحدد فوجدت أربعة من القساوسة في انتظاري ومعهم طبيب مختص، أخبرهم الطبيب بعد أن أنهى إجراءات

الكشف واطلع على التحاليل والأشعة بأنه يلزمني عملية جراحية في أوتار الذراع الأيمن كي يعود إلى حركته الطبيعية ، سألوه هل بإمكانه إجراء مثل هذه العملية ، أجابهم بالموافقة لكن الأمر يتطلب مبلغا لا يقل عن عشرين ألف جنيه.. نظر بعضهم إلى بعض من غير أن ينطق أحدهم بكلمة .

عدت إلى بيتي فاقد الثقة ، حاولت أن أقنع نفسي بهذه الحياة ، وأرضى بقضاء ربي .. مر شهر كأنه دهر لدرجة أنني قد وطنت نفسي وروضتها على الحياة الجديدة ، فإذا بشاب يأتي إلى بيتي يطلب مني المثول أمام اللجنة الطبية في الصباح الباكر.

قررت اللجنة إجراء العملية بعد أسبوع ، وبالفعل أجريت العملية ونجحت والحمد لله ، ولم يقف الأمر عند هذا الحد بل أقاموا لي مشروعاً صغيراً يعينني على أعباء الحياة ، كنت بين لحظة وأخرى أنتظر أن يطلبوا المقابل ، كان خوفي أن يساوموني على ديني مقابل الخدمات التي قدموها لي ، لكن هذا لم يحدث ، بل إنني حين سألته عن سبب اهتمامه بي ، أخبرني بأن صدقي معه جعله يحترمني ويصر على مساعدتي ، ويقول : يكفي يا بني أن نكون بني وطن واحد ، من ثم توطدت العلاقة بيننا وصرنا أصدقاء ، ومنذ هذه اللحظة وأنا أكن لهم كل احترام وتقدير ، ولا أدع مناسبة من المناسبات دون أن أشاركهم أفراحهم وأحزانهم ، وهاأنذا ذاهب الآن إلى الإسكندرية لحضور حفل زواج أحد أقارب القسيس .

هذه يا سادة حكايتي ما كنت أرغب في قصها لولا مرور السائل الذي ضجرتم منه ، لكنه ذكرني بقصتي .. قد يكون حاله كحالي عندما كنت في أمس الحاجة إلى المساعدة، وحينما خضتم في حديثكم عن الفتن الطائفية أردت أن ألفت انتباهكم بأننا منذ ألف وأربعمائة سنة نعيش على أرض مصر كأبناء وطن واحد ، لم نعرف التطرف أو الإرهاب أو التعصب الأعمى أو ما يسمى بالفتن الطائفية

إلا في العقد الأخير من القرن العشرين بسبب محاولات الغربيين المستمرة لإحداث صدع أو شرخ في جدار الأمة يسمح لهم بالتدخل في شئون بلادنا واحتلالها من جديد ، وتذكروا يا عباد الله أن الله سبحانه وتعالى قال في محكم آياته : (لا يَنْهَاكُمُ اللَّهُ عَنِ الَّذِينَ لَمْ يُقَاتِلُوكُمْ فِي الدِّينِ وَلَمْ يُخْرِجُوكُمْ مِنْ دِيَارِكُمْ أَنْ تَبَرُّوهُمْ وَتُقْسِطُوا إِلَيْهِمْ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ)

صمت الجميع كأن على رؤوسهم الطير ، وبدا الشاب الأرعن خجلاً من نفسه بعدما تبين له كذب دعواه ، وبعدما أيقن أن إطلاق الأحكام أمر فيه من السفه والشطط ما لا تحمد عقباه، طفق الرجل الوقور يرسل من جديد بصره عبر النافذة يتأمل بديع صنع الله ، ويقول بين الفينة والفينة : سبحان الله ..!!

****

جفاف المشاعر

منذ فترة ليست بالقليلة يعم الصمت ، ويرتسم الضجر على وجهيهما كلما التقيا، كأنما جمعهما المكان على غير هوى منهما .. كثيراً ما يكون شارد اللب ، قلق النفس ، حائر البال، بين لحظة وأختها يرنو إليها بطرف خفي فيلمح انقباضاً في أسارير وجهها العبوس فيزداد امتعاضاً وتجهّماً..!!

وهي مطرقة صامتة تسبح بأفكارها وخواطرها في بحار بلا شطآن من الهموم والشكوك التي لا تفتأ تساورها صباح مساء، حتى أحالت ليلها نهاراً ، فلا تغمض لها عين، ولا يرقأ لها دمع، وأحالت نهارها ليلاً سرمداً كئيباً موحشاً خبا في جوفه ضوء الأمل، وغابت عن سمائه شمس الرجاء.

برودٌ وجفافٌ أحدقا بهما بعدما اعتُقِل في حلقيهما لساناهما ، وتبلدت من فرط صمتهما مشاعرهما، فأصبحا كتمثالين حجريين يخلوان من كل حرارة إلا من حرارة النجوى ، وحديث النفس إلى النفس ..!

مجتثَّةٌ في بستانهما الذابل أشجارُ العواطف .. مهدّمةٌ أمام أعينهما جسورُ التواصل.. مقطعةٌ بين شفاههما خيوطُ الحوار، فأمسى المكان جامداً موحشاً كالطلل أو الكهف الخرب..!

شرع يهيم في عالم من الأفكار والخواطر.. يستدعي الذكريات، ويسأل نفسه في ألم ممضّ، وكرب لا تنقشع غمامته:

ـ من هذه المرأة الماثلة أمامي ؟ أهي بحق زوجتي ؟! أيمكن أن أكون قد أحببتها يوما؟! كيف اخترتها ؟! أكنت مصاباً بالخبل حينئذٍ ؟! أم هي المراهقة الملعونة التي تصوّر لنا القبح جمالاً؟! ألا



ما أبرد عاطفتها ، وما أثقل ظلها ..! ألا ما أشبهها بالرجال..! بل ما أشبه الرجال بها..!!

هاهي قابعة أمامي صامتة كالحجر.. باردة كالثلج .. أ ترى فيم تفكر.. ؟! أتكون قد علمت بما عزمت عليه من أمر الزواج ؟! وما الغريب في الأمر .. !! أليس من حقي أن أتزوج ما طاب لي من النساء مثنى وثلاث ورباع..؟!

إنني أحوج الناس إلى الزوجة الثانية .. أريد أن أشعر برجولتي .. أريد امرأة جميلة رشيقة تملأ دنياي بالحب والحنان والنشوة والمرح.. أريد أن أمشي بين الناس مرفوع الرأس مختالاً كالطاووس، وقد استقرت على ذراعي ذراع أنثى كالقمر، تتهادى إلى جواري كظبية وديعة تصرف أبصار الناس إلينا فأرنو إليهم بنظرات ازدراء كأني ملكت الدنيا بما فيها.

والزوجة مازالت مطرقة ترجع بذاكرتها إلى ما قبل الزواج .. تتراءى لها صورة أبيها الحنون الذي كان يحبها أكثر من نفسه ، ويخصها بمزيد من التدليل عن بقية إخوتها ، أكان يرى من سجف الغيب ذلك العذاب الذي ينتظرها ؟! أكان يسمع تلك الآهة الحرّى المتردد صداها بين جوانحها قبل أن تولد بعشرات السنين ؟!

من لها في وحدتها الكئيبة بعد أن هجرها زوجها بروحه وجسده؟!

لو كان ميتاً لهانت مصيبتها؛ فكم من زوجة مات عنها زوجها وهي لا تزال في ريعان شبابها، فتؤثر أولادها على نفسها ، وتعكف في صمت ورضا على تربية أولادها ، لكن الخطب يكون أفدح إذا جمعهما مكان ثم لا يكون معها بروحه ولا بجسده .

حنانيك يا إلهي .. رفقاً بأمتك الضعيفة .. رفقاً بأمتك التي طالما صبرت على فقر زوجها، وتجرعت في كنفه غصص الحرمان، إنها لا تزال تحبه، لا تزال قادرة على التضحية.. ولكن من أجل من؟!

من أجل زوج لا يطيق رؤيتها ؟! من أجل رجلٍ يتجاهلها وكأنها نسيا منسيا ؟!

ما ذنبها في كونها تشبه أباها؟! .. ألم يكن أبوها وسيماً ؟!

ما ذنبها في اكتناز لحمها، وازدياد وزنها حتى تلاشت تضاريس جسدها فأضحت كالكرة المنتفخة ؟! ما ذنبها في ثرثرة ورثتها عن أمها وصوت جهوري ورثته عن أبيها ؟! ما ذنبها في جرأتها التي درجت عليها حتى لقد غدت تتطاول على زوجها وأهل زوجها باللعن والسباب لأنها اعتادت منذ صغرها ألا تسكت لأحد يسبها أو يهين كرامتها ..؟!

لعل هذه الصفات المجتمعة فيها هي ما جعلت زوجها كارهاً لها، نافراً منها ، وينتظر من الله لحظة الخلاص .. لكنه مع هذا لا يملك القدرة على تطليقها؛ فبينهما نبتت بذور جديدة تحتاج إلى الرعاية والحنان، ولعله يخشى الضياع على أولاده إذا حدث الفراق ، كما أنه موقّع على إيصال أمانة؛ فهو لم يكن يملك مهرها حين تقدم لخطبتها، ولا يملك المسكن الذي يعيشان فيه، لقد ضحّى أبوها من أجل سعادة ابنته ، تلك المحببة إلى قلبه ..!

ولولا خوف الزوج من العاقبة الوخيمة المترتبة على هذا الإيصال الذي وقّع عليه لما بقيت زوجته على ذمته كل هذه المدة التي تجاوزت عقداً من الزمان؛ إذ إنه لا يستطيع بأي حال من الأحوال أن يوفيها ما عليه من حقوق، أو يسدد تلك الديون التي تطوق رقبته فتجعله أمامها ذليلاً.. ولفضلها أسيراً، خاصة وأنه يعمل موظفاً صغيراً في إحدى الوظائف الحكومية.

وجد في عمله بعد الظهر ما يشغله عن زوجته، ويجعله يتحرر من قيدها بقية من النهار وطرفا من الليل.. أصبح في عمله منهمكا حتى لم يعد يعلم شيئاً عن أولاده، ولا يحاول أن يسألها عن أحوالهم لأنهم يذكّرونه دائمًا بخطيئته التي يحاول نسيانها .. إنه

يخرج من البيت قبل أن يستيقظوا من نومهم، ويعود إليه بعدما يغطوا في نوم عميق.

في عالمه الجديد الذي أخذ منه جُلّ وقته بهرته المدينة بأضوائها البراقة، وضجيجها الصاخب، وحوّله الثراء الذي يراه مجسداً أمامه في البيوت الفخمة، والأثاث الفاخر، والسيارات الفارهة إلى شخص متمرد على حياة الضنك التي يعيشها، ثائر على هدوء القرية البائسة الناعسة الزاحفة نحو المغيب .

لاحت لعينيه الفتيات الصغيرات في أزيائهن العصرية كظباء تتهادى لاهية عابثة.. هفا إليهن قلبه الملتاع، واشتاقت للريّ من جمالهن النديّ روحه الظامئة، كان يحتال لجذب أنظارهن إليه ، فإذا ما وقعت إحداهن في شباكه دعاها إلى تناول الغداء معه في أحد المطاعم الفاخرة .. ينفق عليها في وجبة واحدة ما ينفقه على أسرته في شهر.

ما كان ليطمع في شيء أكثر من خروجها معه، وسيرها إلى جواره، وقضاء وقت ممتع وإن كان قصيراً .. كانت لذته في محادثتها عن قرب، ورؤية علامات المرح والانطلاق مطبوعة على وجهها الضحوك، ومتلألئة في عينيها الباسمتين، وما أسعده حينما يلامس يديها الناعمتين كالحرير، لكنه سرعان ما يصيبه الملل، ويعتريه الفتور فيبحث عن فتاة أخرى ينفق عليها مثل ما أنفقه على فتاة الأمس..!

كثيراً ما نصحه أحد أصدقائه بأن يتخلى عن هذا السلوك الشائن والعادة الذميمة ؛ إذ إن أولاده وزوجه أحق من غيرهم بهذا المال المهدر في سبيل الهوى والشيطان والنفس الأمارة بالسوء، لكنه لم يأبه لنصيحة صديقه وظل سادراً في غيّه لا يلوي على شيء .

امتدت يده للاقتراض ممن يعمل عنده أكثر من مرة، فلما رأى صاحب العمل بذخه وإسرافه وعدم اكتراثه بما وصل إليه حاله رفض إقراضه وأصبح يطالبه بما عليه من ديون..!!

تعرف على أرملة حسناء صغيرة السن ، عرض عليها الزواج.. أبدت موافقتها وأخبرته بأنها تمر بضائقة مادية وتحتاج إلى معونته .. تحركت في صدره مظاهر النخوة والشهامة، وحاول أن يظهر لها بأنه رجلها الأوحد .. جهز أوراقاً وحوّل راتبه على البنك وسحب قرضًا على راتبه ليقدمه هدية لهذه الأرملة الجميلة .. أخذت المال ثم اعتذرت إليه بأنها لا تقبل أن تكون زوجة ثانية..

طارت العصفورة الرشيقة من يده مخلفة وراءها ذيلاً ثقيلاً من الديون، اختار كرهاً أن يحمله على عاتقه حتى ناء من ثقل حمله، وضاقت عليه الأرض بما رحبت .

فكر معه بعض شياطين الإنس من رفاق السوء الذين تعرف عليهم في الآونة الأخيرة فقال أحدهم ذات مرة:

ـ وجدتها ..!

فرد وقد بدت الدهشة على وجهه :

ـ أي شيء تقصد؟!

ـ أقصد الفكرة التي تمكننا من الحصول على المال بسهولة .

ـ وما هذه الفكرة التي واتتك؟

ـ نستأجر شقة مفروشة لمدة قصيرة نفتح فيها مكتباً للسياحة والعمالة ونعلن في الجرائد عن حاجتنا إلى أيدٍ عاملة للسفر إلى الخارج أو للتوظيف داخل الدولة ، نطلب من كل فرد مبلغا من المال يتناسب مع نوع الخدمة المفترض أن تقدم له ، فإذا ما تجمع لنا قدر من المال يرضينا نلوذ حينئذٍ بالفرار.

ـ وهل تظن الناس من السذاجة بمكان يجعلهم يصدقوننا ويستأمنوننا على أموالهم ؟

ـ اعلم يا أخي أن الناس مهما ارتقت عقولهم، ومهما تفتقت أذهانهم من السهل أن تسيطر عليهم وتسلب منهم أموالهم ، لاسيما في هذا الزمان الذي أصبحوا فيه كالغرقى يتطلعون إلى طوق نجاة ولو كان خادعاً .

برقت في أذهانهم الفكرة ، وشحذت الأحلام المستعرة هممهم، فطفقوا يجسدون هذا الوهم المسيطر، ويحولون أحلامهم السانحة إلى حقيقة واقعة .

في غضون بضعة أشهر جمع الرفاق أموالا طائلة من جراء بيعهم الأوهام الكاذبة للكسالى السذج الذين يعيشون على آمال زائفة؛ كل واحد من هؤلاء يحلم بوظيفة أنيقة يجلس خلالها إلى مكتب فخم، ويسند ظهره في عنجهية وخيلاء إلى مقعد وثير، تداعب نسمات التكييف محياه، فيزور الكرى عينيه الناعستين فلا يفتحهما إلا عندما يحين موعد الانصراف.

هكذا يحلمون .. لا يفكر أحدهم في أن يضرب في الأرض ابتغاء رزق الله ، تعودوا أن يكونوا عيالاً على أهليهم حتى سن الثلاثين ، فكيف لا يكونوا عيالاً على الحكومة بقية عمرهم؟!

بيد أن في هؤلاء المضحوك عليهم أناساً جديرين بالشفقة، خليقين بما يسعون إليه، بعضهم يبحث عن فرصة حقيقية للسفر كي يحقق طموحه وأهدافه، وبعضهم يبحث عن وظيفة؛ لأن صحته لا تساعده على الأعمال الحرة والشقاء اللانهائي..!

في ظروف غامضة اختفى رفاق السوء عن الزوج البائس وعن أعين الرقباء، وبقي الزوج ضحية خديعتهم الماكرة ؛ فالضحايا لا يعرفون أحداً من هؤلاء الرفاق، وإنما يعرفون هذا الزوج الذي كان يستدرجهم إلى المكتب، فيدفعون أموالهم بدافع الثقة فيه والاطمئنان إليه.

طالبوه بكل أموالهم التي دفعوها لهذا المكتب، ولأنهم لا يملكون أوراقاً رسمية تدينه ورفاقه، اضطر بعضهم إلى اختطافه، وفرض فدية على أهله، بعد أن أوسعوه ضرباً ..! باعت زوجته كل حليها وأخذت حقها في ميراث أبيها، واقترض شقيقه من بعض الناس كي ينقذه من أيدي مختطفيه الذين هددوا بقتله إذا لم تصلهم أموالهم ..!

عاد إلى بيته منكسراً بعدما ذاق ألواناً من العذاب، وبعدما طرده صاحب العمل بسبب سمعته التي أوشكت أن يحيق أذاها بصاحب العمل .. لم يجد حوله من الناس إلا زوجته المحبة له.. نظر إليها فوجد إنسانة مختلفة تماماً عن زوجته التي يعرفها، لقد تبدل العبوس الملازم لها إلى ابتسامات حانية، والصوت الجهوري غدا أرخم من هديل الحمائم وشدو البلابل ، والجسد المتكور أصبح ممشوقا كغصن البان ، والقلب المتأجج غضباً وغيظاً أصبح حانياً مفعماً بالعواطف الدفيئة، ولسانها المعتقل في محبسه تحرر من قيده وشرع يداعبه بكلمات معسولة .. تعجب ، وبدت الدهشة واضحة على قسمات وجهه ، ساءلها في رفق :

- من أنت ؟

أجابت بدلال:

- حبيبتك؟

- لست أصدق عيني .. أأنا في حلم ؟!

- بل أنت في الحقيقة ؟

- هل أنا تغيرت أم أنت ؟

- كلانا تغير يا زوجي العزيز ..! المصائب والنكبات التي أحلت بك أعادتك إلى معدنك الأصيل ، وأنا أحسست أني أخطأت في حقك لأني أنا التي أضعتك من يدي ، وتركتك تقع فريسة لأرباب الفساد والهوى .

ـ كيف تحولت إلى هذه الدرجة ؟!

ـ لم أتحول ، بل عدت إلى أصلي ، ألم أكن رشيقة حينما جئت تخطبني؟!

ـ بلى ، ولكن..!

ـ من يحب يصنع المستحيل، وأنا صنعته من أجلك ، ومن أجل أن تبقى لي .

ـ وأنا يا سيدتي الجميلة عاجز عن شكرك .. لقد كنت لي نعم الزوجة المخلصة، وكنت لك بئس الزوج العاق .

ـ لا تفكر فيما مضى ودعنا نعش حاضرنا ومستقبلنا بشيء من الرضا ولون من ألوان السعادة .

أمسك يديها بكلتا يديه ثم رفعهما إلى فمه وجعل يلثمهما في حنان ويقول:

ـ بوركت يا زوجتي الجميلة ، وجزاك الله عني خير الجزاء.

****

في سبيل الحرية

تدفق الآلافُ نحو الميدان، وما هي إلا سُويعات حتى امتلأ الميدانُ عن آخرِه بجموعِ الثائرين، تلاحمت الأجسادُ المنتفضة؛ فكأنها في حركاتِها وسكناتِها جسدٌ واحد، وتعانقت الأرواحُ الثائرة في موكبٍ روحاني مهيب!

تعالت الصيحات المتدفِّقةُ من القلوبِ العامرة بالإيمان، فارتَجت لها جنباتُ الميدان، وطارت من جحورِها هلعًا قلوبُ الجبابرة، ومادت لرهبتِها العماراتُ الشاهقة والمباني الرَّاسخة الشاهدة على جلالِ هذا المشهد الفريد!

ذابتِ الفوارقُ بين هؤلاء الثائرين، انصهر الجميعُ في بوتقةٍ واحدة؛ لا فرقَ بين غني وفقير، أو بين قوي وضعيف، الكلُّ يتفانى من أجلِ هدفٍ واحد، الكل يهتفُ بشعارٍ واحد؛ كأنما صُبَّ هذا الشعارُ في قلوبهم صبًّا حتى امتلأت به ففاضً على ألسنتِهم جميعًا.

يا لجلال المشهد وروعته!

إنه يبعث الأمنَ والطمأنينة في قلوبِ الضعفاء والمظلومين، ويبعث الرَّهبةَ والفزع في قلوبِ الظالمين المتكبرين، هتافٌ ترتجُّ له القلوبُ الخاوية إلا من حبِّ الدنيا والسيطرة، وتأنس به القلوبُ العامرة الصابرة الراضية بقضاءِ الله وقدره.

وسط هذه الجموع الكثيفة يتحرَّكُ شيخٌ وقُور في خفَّةِ العُصفور؛ يتلألأ في وجهِه الوضيء نورُ الإيمان، وتنبثق من عينيه الصافيتين أشعةُ الحنان، لا تغادرُ شفتيه بسماتُ الرِّضا، ولا يغيب عن صوتِه دفءُ الأمان وبرد اليقين.

يربت في رفقٍ على أكتافِ المتظاهرين، ويحييهم بابتساماتٍ حانية، فترتفع الصيحاتُ حتى تخترق حجبَ السماء؛ لكأنما قد أمدَّهم بشحنةٍ كهربائية أعادت إليهم طاقتَهم النافدة، وكلما مرَّ بجماعةٍ كادت تستسلمَ للفتور المتربص بها، وتلقي يدَ السلم لليأسِ المحدق بفنائها، زأر في رحابِها هذا الشيخُ قائلاً: اصبروا، ألا إنَّ نصرَ الله قريب! فإذا هم يتَّقدون حماسة، ويزأرون هاتفين من سويداء قلوبِهم: يسقط النِّظام!

في هذه الليلةِ كان كل شيء معدًّا للقضاءِ على جموع المتظاهرين الرابضين بالميدان؛ كتائب البلطجية والمرتزقة على أُهبةِ الاستعداد ينتظرون إشارةَ البدء، العربات والسيارات المحمَّلة بكلِّ أنواعِ الأسلحة الفتَّاكة تترقَّبُ الإشارةَ أيضًا للزحف إلى الميدان، شيءٌ من الرهبة بدأ يتسلَّلُ إلى قلوبِ المتظاهرين، تعلقت آمالُهم برجالِ الجيش لكن سرعان ما تبخَّر حلمهم، وتقطَّعتْ في لحظةٍ عُرى آمالهم بعدما أدركوا أنَّ رجالَ الجيش قد قرَّروا البقاء على الحياد، كان لا بد لهم من الاعتمادِ على أنفسهم بعد توكلهم على ربِّهم، تحرَّكوا في همَّةٍ ونشاط كخليةِ نحل لا تكلُّ ولا تملُّ لمواجهةِ الخطر المحدق بهم، في لحظاتٍ أُقيمت المتاريسُ الواقية، ووزعت كتائبُ المتظاهرين على مداخلِ الميدان، ولا يزال الشيخُ الوقور يتحرَّكُ في همةٍ ونشاط؛ يوزِّعُ الأدوارَ، ويحثُّ الخاملين، بل يعيد إليهم نشاطَهم سيرته الأولى!

بدأت المعركةُ غير المتكافئة في كل شيء؛ أعداد المتظاهرين تفوقُ أعدادَ المرتزقة بعشراتِ المرات لكنَّهم لا يملكون حجرًا واحدًا يدافعون به عن أنفسهم، وعبيد الذِّئابِ قلةٌ لكنهم يملكون كلَّ أسباب القوة، المتظاهرون مُحاصَرون في الميدان، والمرتزقة يتنقَّلون بحريةٍ عبر الشوارع والميادين المتعددة، المتظاهرون ملعونون من

السلطةِ الحاكمة بأمنِها وإعلامها، والفلولُ ينعمون بكلِّ أشكال الرِّضا والقبول من هذه السلطة.

توالت قذائفُ الأحجارِ على رؤوس المتظاهرين، وتدفقت على أثرها الدِّماءُ الطاهرة الفائرة تسيلُ على الجباه وعلى صفحاتِ الخَدود، استعرت الأرواح في الميدان، هبَّ الثائرون هبة الأسود الغاضبة، هجموا بأعدادٍ غفيرة على شراذم المرتزقة، فرَّ المتشردون أمام جحافلِ المتظاهرين، تاركين وراءهم بعض الأحجارِ والهراوي وبعض المتاريس التي كانوا يحتمون بها، الآن امتلك المتظاهرون شيئًا ولو قليلاً يدافعون به عن أنفسِهم، فعادوا إلى الميدانِ في ثقةِ المنتصرين، توالت الكراتُ والفرات في ليلٍ طويل كئيب، وبين آونةٍ وأخرى يسقطُ جريحٌ، بل عشرات الجرحى من كتائبِ المتظاهرين الذين كانوا حريصين على أن تكونَ مظاهرتُهم سلمية، ولا يريدون أن يعكِّروها بقطرةِ دمٍ واحدة، لكن شجرة الحرية لا تُروى إلا بالدَّم.

تتابعت القَنابلُ اليدوية الحارقة على جموعِ المتظاهرين، وكلما شبَّ حريقٌ في طرفٍ من أطراف الميدان هرع المتظاهرون إليه لإخمادِه، واستعادة السيطرة على هذا المكان، والشيخُ الوقور تراه في كلِّ طرف من أطرافِ الميدان كالطودِ الشامخ لا يهاب الموت، بل كأنه يسعى إلى الشهادةِ سعيًا.

وبعد منتصفِ الليل بساعةٍ كانت فلولُ النظام قد أصابها الإعياء، فهدأت المعركةُ ريثما تأتي فلولٌ أخرى تواصل اعتداءها الآثم على المتظاهرين، هنالك استعاد المتظاهرون أنفاسَهم، والتفتوا إلى جرحاهم وشهدائهم، وطفقوا يبدلون أماكنَهم ليستريح مَن كان في المقدمة، ويواصل الدِّفاعَ عن الميدانِ مَن كان في الصفوفِ المتأخِّرة.

في تلك اللحظات طاف الشيخُ كنسمةٍ رقيقة في أرجاء الميدان يقبِّل رؤوسَ المتظاهرين، ويحثهم على الصبرِ ومواصلة الكفاح قائلاً لهم في عزم صلد:



• ألا إنما النَّصرُ صبر ساعة!

التفت إليه شاب - ارتسمت على وجهِه كل علاماتِ الدهشة - قائلاً:

• لماذا تقبِّل رأسي أيها الشيخ؟!

ردَّ الشيخُ بابتسامةٍ مشرقة:

• لأنك شرفتنا يا بني، ورفعتَ رؤوسَنا عالية بثباتك!

ردَّ الشاب بوجهٍ عابس:

• ولكني لا أحبُّ الشيوخَ ولا المتدينين.

• لماذا يا بني؟!

• لأني علماني وأشعرُ بانقباضٍ ونفور كلما رأيتُ شيخًا من المشايخ.

• ولماذا تكرهُهم؟

• لا أدري!

صمتَ الشيخ برهة، ثم قال في هدوء:

• لماذا اخترتَ أن تكون علمانيًّا؟

• لأني أحبُّ أن أكونَ حرًّا لا يقيد حريتي شيء، حتى لو كان هذا الشيء هو الدِّين!

• أنت واهمٌ يا بني، ما هكذا تكون الحرية، إنَّك تبحثُ عن شيءٍ آخر غير الحرية، إنك تبحثُ عن شيءٍ يُسمى بالفوضوية؛ إنَّ الحرية الحقيقية هي أن يتحرَّرَ الإنسان من كلِّ المعبودات إلا من معبودٍ واحد جدير بأن نكونَ جميعًا عبيدًا له؛ لأنَّ في عبادتِه تكمنُ العزةُ والكرامة، أمَّا الفوضوي فيكون عبدًا لآلهة كثيرة لا تحقِّقُ له إلا الشهوات الزائلة التي يعقبها ندمٌ طويل، الحرية الحقيقية أن تكونَ مسؤولاً، ويكون لك دورٌ في الحياةِ تلتزم به، حتى لا تطغى حريتك على حرياتِ الآخرين، الحرية الحقيقية أن تُعْتَق روحُك من سجنِها الطيني المظلم لتسبحَ في النور الأبدي.

• ولكني لا أحبُّ أن أُرغم على شيء.

• إنَّ الدينَ يا بني لا يفرض نفسَه على أحد قهرًا، وإنما هو وثيقة ضمان لنجاتك من النَّار، ودخولك الجنة إن قبلتها والتزمت بشروطها، وإن لم تقبلْها فهذا شَأنُك.

• أنا لستُ كافرًا يا شيخ، أنا مسلم!

• العملُ والالتزام بالمبادئ هو الدليلُ يا بني، لا يكفي القول.

• ولكني لم أصلِّ في حياتي قط.

• التوبة يا بني تجُبُّ ما قبلها إذا كانت نصوحًا، فجدِّدِ العهد مع ربِّك واستغفره إنه كان توَّابًا.

هبَّ الشيخ واقفًا لمواصلةِ الوفاء بنذره؛ فقد نذر أثناء الجولةِ الأولى من المعركةِ أن يقبلَ رؤوس الشباب الذين ثبتوا في الميدانِ رغم النكباتِ التي ألمتْ بهم، هتف الشاب وعلى شفتيه ابتسامةٌ خجْلى قائلاً:

• أيها الشيخ إني أحبك.

نظر إليه الشيخُ نظرةً حانية طويلة، وحيَّاه بابتسامةٍ وديعة، ثم تمتم بدعاء له.

في زاويةٍ أخرى من زوايا الميدان وقف شاب يترقَّبُ قدومَ الشيخ، فلم يكد يصل إليه حتى بادرَه الشاب بتقبيلِ رأسه قائلاً في سعادةٍ غامرة، ودهشة آسرة:

• الشيخ "حمزة" أمامي بشحمِه ولحمه، لا أصدقُ عيني!

قال الشيخ في وقار:

• بارك الله فيك يا بني، أتعرفني؟

• أنا اسمي حازم، وأنا من المعجبين بك، وأتابعُ أحاديثَك دائمًا في التلفازِ مع أبي، وأبي أيضًا يحبُّك كثيرًا ويتمنى لقاءك.

• أحبكما الله الذي أحببتماني فيه!

هَمَّ الشيخُ بالانتقالِ إلى مكانٍ آخر، لكن الشاب تعلَّقَ به وقال وهو يكاد يطير من فرحه:

• لا لن أدعَك تمضي حتى تسمع صوت أبي، إنه سيفرحُ كثيرًا عندما يسمع صوتك.

بدا صوتُ الأب في الهاتف شاحبًا باهتًا، وما إن علم بأنَّ محدثَه هو الشيخ "حمزة" حتى انتفض من شدةِ الفرح، كأنه يرى الشيخَ رؤيا العين، فبدا الصوت قويًا كأنما استمد قوتَه من قوةِ الشيخ وثباته.

قال الأب في لهجةٍ مفعمة بالاستعطاف:

• أيها الشيخ، إنَّ ابني أمانة عندك، اجعله في كنفِك بحيث لا يغيب عن عينيك فهو وحيدي، وهو الذي يعولني بعدما أصابني الكبر، ودهمني المرضُ، فإن مات متُّ من الجوع.

• لا تقلق أيها الأبُ الرحيم، فهذا الابنُ البار أفديه بروحي، وكل ما أرجوه منك أن تدعو الله لنا بالنصرِ وتحقيق ما جئنا من أجلِه.

• بوركتَ أيها الشيخ الجليل، ونصركم الله نصرًا عزيزًا مؤزرًا حتى نرى مصر تعود لأحضانِ أبنائها، وتنهض برجالها وعلمائها.

في هذه الساعةِ المتأخرة من الليلِ كانت مجموعةٌ من القنَّاصةِ التابعة لوزارةِ الداخلية قد اعتلت أسطحَ العماراتِ المشرفة على الميدان، وبدأت في إطلاقِ الرَّصاصِ الحي على مواكب المتظاهرين داخل الميدان، انقطع التيارُ الكهربائي، وتتابع دويُّ الرصاص في أفقِ الميدان، ولا تزال القنابل الحارقة، والأحجار الرخامية المدببة تنثالُ على رؤوس الثائرين، وبين لحظةٍ وأختها يتنادى النَّاسُ بسقوطِ شهيد، والشيخ "حمزة" في هذه الأحداثِ المشتعلة لم يعد يهتم بشيءٍ إلا بهذا الشاب الذي تعهد بحمايتِه؛ إذا

كرَّ إلى الأمامِ جعل هذا الشابَّ خلفَه، وإنَّ فرَّ إلى الخلف جعله أمامَه؛ حرصًا عليه من أن يُصاب بأذى.

في لحظةٍ غاب الشاب عن عينِ الشيخ، طفق ينادي عليه بأعلى صوته، ولكنَّ الصوتَ سرعان ما يذوب في هديرِ الأمواج المتلاطمة من حشود الثائرين، لم تتوقف طلقاتُ القناصة إلا بعد أن اشتعلتِ المروءةُ بقلب أحدِ ضباط الجيش، فجعل يصوِّبُ بعضَ الطلقات النارية نحو القناصة، ونحو كتائب المرتزقة.

بدأت خيوطُ الفجرِ تتسلَّلُ في وهن إلى الميدان، وبدأت تنقشع عنه غمامةُ الخوفِ وسحائب الرهبة، تحسَّسَ الثائرون جِرحاهم، وتلمسوا شهداءهم، وهنالك صرخ الشيخُ "حمزة" صرخةً مدوية تردَّد صداها في أرجاءِ الميدان، بعدما اكتشف أنَّ الحذر لا يمنع القدر.

******

قلب من حجر

قبيل الغروب اعتادت "نجوى" أن تترك حجرتها الكئيبة الحارة المظلمة لتجلس على مِصْطَبة أمام الدار تتلقى نسمات صيفية باردة ، ممسكة بإحدى يديها كوباً من الشاي الأسود ترتشفه ببطء كأنما تلتذُّ بمرور كل قطرة منه على مراكز التذوق في اللسان.

ساهمة شاردة كأنما تعيش في عالم من الرؤى والخواطر والأحلام.. ترمق العابرين بنظرات حادة حانقة حَرِيّة ببث أطنان من الرعب والهلع في نفوس من يبادلونها النظر..!!

وجهها الرجولي الصلب الذي شكلت ملامحه الدميمة البائسة أنياب الدهر المفترسة غابت عن واديه رقة الأنوثة ، وعن سمائه سحائب الرحمة وأنوار الطلاقة .

تعيش في هذه الدار مع شقيقيها اللذين يختفيان لبضعة أيام، ثم لا يلبثان أن يظهرا .. لكن أحداً لا يعرف لاختفائهما سبباً، ولا لظهورهما علة.. أصبحت الحياة الغريبة التي يعيشها هؤلاء الأشقاء ـ غريبي الأطوار ـ حياة عادية مألوفة لدى الجيران؛ لأن حياتهم الغريبة هي امتداد لحياة الوالدين الأكثر غرابة ..!!

"نجوى" متزوجة في قرية بعيدة .. لكنها تجلس في بيت أبيها أكثر مما تجلس في بيت زوجها، ولولا علامات الحمل البادية عليها لما صدق أحد أنها على ذمة رجل ..!!

اعتاد الجيران على خروجها في الساعات المبكرة من الصباح، لكنهم لا يعرفون متى تعود إلى بيت شقيقيها، فقد تعود في وقت الظهيرة ، أو مع أذان العصر ، أو في عتمة العشاء ، لا أحد يهتم بذهابها أو يعبأ بعودتها ، غير أنهم يرونها في بعض الأحيان

ترجع حاملة سلة كبيرة مصنوعة من البوص على رأسها ، وأحيانا ترجع خاوية الوفاض.

ذات نهار تراءت لعينيها الزائغتين المحدقتين في كل ما يحيط بها توأمتان صغيرتان لا يتجاوز عمر الواحدة منهما أربع سنوات.. تلعبان على مقربة منها ، تلألأ في وهج الشمس الضاحكة قرط ذهبي في أذن إحدى الطفلتين .. جحظت عيناها ، ودارت في خلدها خواطر شيطانية .. الشارع خلا تماماً من المارة ؛ فالوقت وقت قيلولة ، ومعظم أهل القرية مشغولون في حقولهم بجني القطن ، لا تجد أحداً في القرية إلا بعض الشيوخ وأصحاب الأمراض والعلل، وبعض الموظفين الذين لا يمتلكون أرضاً ، وقد تعوّد هؤلاء على النوم وقت القيلولة بعد عودتهم من أعمالهم .

والد الطفلتين رجل موظف في هيئة قصور الثقافة في مدينة مجاورة، وزوجه ربة منزل يعيشان في بيت صغير على بعد أمتار قليلة من بيت نجوى، لا يمتلكان أرضاً وليس لهما دخل سوى الراتب الشهري للزوج، لكنهما مع هذا يهتمان بأناقتهما وأناقة الطفلتين .

كان هذا القرط الذي تتحلى به إحدى الطفلتين هدية من خالهما، كان قد اشترى لكل واحدة منهما قرطا من الذهب، غير أن الوالدين اضطرا إلى بيع أحد القرطين لضائقة مادية مرا بها.

استدرجت نجوى الطفلتين إلى دارها ، أعطت إحداهما خمسة قروش لتشتري بها حلوى لها ولأختها ، وأخبرتها أنها في انتظارها هي وأختها ، ذهبت الطفلة لشراء الحلوى ، أخذت "نجوى" الطفلة ذات القرط ودخلت بها إلى حجرة مظلمة في نهاية الدار ، مدت يديها إلى أذن الطفلة لتنزع عنها القرط ، صرخت الطفلة .. كتمت فاها بإحدى يديها ، ونزعت القرط بيدها الأخرى.. لعب الشيطان برأسها ووسوس لها بأن الطفلة لابد مخبرة أهلها ، فراودتها فكرة الخلاص منها .. خنقتها بكلتا يديها .. جحظت عينا الطفلة ، وتدلى لسانها ،

سقطت على الأرض بعد أن صعدت روحها إلى بارئها ، تلفتت "نجوى" كالمجنونة حولها .. أخذت بفأس وحفرت حفرة داخل الحجرة ، وقبل أن تلقي بالطفلة داخل الحفرة أخذت سيخاً من الحديد ووضعته على النار حتى احمر ثم عمدت إلى ما بين فخذيها وأدخلت السيخ إلى أحشاء الطفلة حتى لا تتسرب رائحة الجثة إلى الحجرة ومنها إلى الشارع .. دفنتها في حفرتها المعدة لها ، ثم غسلت وجهها ومسحت التراب عن ملابسها، وخرجت إلى الشارع تجلس كعادتها أمام البيت كأن شيئاً لم يكن .

وقفت الطفلة الثانية بإزائها لتسألها عن أختها فأخبرتها بأنها سبقتها إلى البيت ، عادت الطفلة إلى بيتها وحيدة .. سألتها أمها عن شقيقتها لكن الطفلة لا تعرف .. لقد ألهتها الحلوى عن أختها، ولأنها طفلة لا تستطيع أن ترجع بذاكرتها وحدها إلى ما قبل الحلوى فمن ثم فشل الوالدان من معرفة مكان الطفلة المختفية .

هاما على وجهيهما كمن به جنة ، وخرج معهما الجيران ، وخرجت معهم "نجوى" يبحثون جميعاً عن الطفلة الضائعة ، ساعات وساعات دون جدوى ، أبلغا الشرطة التي أخذت بدورها استجواب الجيران والطفلة الصغيرة التي استطاعت أن تتذكر آخر مرة رأت فيها أختها فأخبرتهم بأن "نجوى" أدخلتها بيتها ، وأعطتها بعض القروش لتشتري بها حلوى.

قبض على "نجوى" التي كانت تستعد للهرب من القرية ، وبكثير من الضغط عليها اعترفت بجريمتها ، ودلتهم على الحجرة الملعونة التي أخفت فيها معالم الجريمة ، حفرت الحجرة ، واستخرج رجال البوليس منها سبع جثث لسبع ضحايا كلهن من البنات الصغيرات جلبتهن من قرى مختلفة .. تقوم بتخدير الضحية ووضعها في سلة تحملها على رأسها ثم تأتي بها إلى بيتها لتنزع عنها قرطها ولتدفنها في حجرة الموت.

حكم عليها بالإعدام شنقاً ، وعلى شقيقيها بالمؤبد ، لكن الإعدام تأجل حتى تضع مولودها وترضعه إلى أن يبلغ حد الفطام ، كانت القرية في تلك الأثناء في حالة شديدة من الهلع والفزع، يتصورون أن مخالب "نجوى" يمكن أن تصل إليهم من وراء القضبان .

لم تذق القرية طعم الأمان ، ولذة الاستقرار، ونعيم الراحة إلا بعد تنفيذ حكم الإعدام فيها .. هنالك .. اطمأنت القلوب الواجفة ، وهدأت النفوس المضطربة ، وخرج الأطفال الأبرياء إلى الشوارع يرتعون ويمرحون ، وباتت نجوى حديثا باهتاً وذكرى في عمق النسيان .

******

الفــرار من الأقــدار

في شرفة القصر وقفت الأميرة الجميلة ذات العينين الزرقاوين كزرقة السماء الصافية ، ترنو إلى الطبيعة الغَنَّـاء بلهفة المشتاق ، وكأنها تغازلها بصمتها الوقور، ونظراتها الحالمة ، وهمساتها الرقراقة.. يهب على محياها الوضيء بين الحين والحين نسيمٌ عليلٌ يداعب خصلات شعرها الذهبي الناعم المسترسل على خديها المتوردين، فتهز رأسها في شموخ لتعيد شعرها الزاحف في دلال فوق عينيها وجبهتها الغراء إلى حالته الأولى ..!

تطرّق إلى سمعها صوت بدوية عجوز تترنم بأهازيج ليست غريبة على مسامعها ، ألقت ببصرها خلف سور الحديقة لترى امرأة سمراء نحيفة ترتدي جلباباً أسود، وقد اعتصبت بعصابة مزركشة، وفوق رأسها استقرت قُفَّة من الخوص مغطاة بجلباب لا يعرف لونه الأصلي.

أصغت إليها في اهتمام فالتقطت أذناها هذه الجملة التي ترددها تلك المرأة :

ـ أبين زين .. ووشوش الودع ، واضرب الرمل.

دفعها الفضول لمعرفة سر هذه المرأة ، فنادتها من شرفتها ودعتها للدخول إلى القصر.. ثم دعتها إلى غرفتها وسألتها في اهتمام:

ـ أيتها البدوية .. أتعرفين حقاً ذلك المسطور في الغيب؟!

أجابت البدوية :

ـ ليس كل الغيب يا مولاتي بل بعضاً منه.

ـ كيف ، والغيب لا يعلمه إلا الله ؟!

- صحيح ما تقولين يا مولاتي، ولكن الله سبحانه يكشف عن بعض الأسرار لبعض خلقه، ألم يوحِ إلى الخضر بأسرار لم يكن موسى عليه السلام على علم بها ؟!

- بلى .. ولكن الخضر عليه السلام نبي ، أتزعمين أنك نبية؟!

- حاش لله يا مولاتي، ولكنها مهنتي التي ورثتها عن آبائي .. امتهنتها لأقتات من ورائها، وحيث إن لكل مهنة سراً ، فأرجو ألا تسأليني عن سر مهنتي .

- على أية حال فليس يهمني إن كنت ملاكاً أو كنت شيطاناً، كل ما يهمني أن تحسني قراءة طالعي وإلا شكوتك للملك وأنت تعلمين من هو الملك..!

- أمرك يا مولاتي..!!

أخذت المرأة قطعة من الودع .. جعلت تنفث فيها ثم تهمس إليها.. لم تمض برهة حتى اصفر وجهها، واستقرت غمامة من الكآبة السوداء فوق وجهها الذابل، حدقت في وجهها الأميرة، وارتسمت على ملامحها الرقيقة علامات القلق والرهبة والخوف من المجهول.

سألتها وفي قلبها تتأجج نار الوساوس:

- ما وراءك أيتها المرأة ؟!

نظرت إليها المرأة نظرة إشفاق وقالت:

- لاشيء يا مولاتي.

- أراك تكذبين .. عيناك تنطقان بما تخفينه وراء لسانك، أفصحي عما ترين .

- أرى يا مولاتي أن القدر يخبئ لك ما لا تحمد عقباه.

- أفصحي .. أفصحي أكثر أيتها البائسة.

- أخشى غضب مولاتي .

- لك الأمان ، ولكن إياك والكذب ..!

- لن أقول إلا ما أرى .. ستكونين يا مولاتي سبباً في تعاسة مولاي الملك وحزنه الدائم.

- كيف .. وليس لي في الدنيا سواه ، وليس له في الدنيا سواي؟!

- ستكونين يا مولاتي سبباً في فضيحة تهز عرشه، فيشقى على أثرها حيناً من الدهر، ستكون حكايتك على كل لسان ، يتحدث بها القاصي والداني ، ويتناقلها في ترحالهم الركبان.

- كفى .. كفى أيتها الشمطاء ، أنت تكذبين ، ألا تعرفين من أكون ؟! أنا الأميرة "نور الصباح" ربة الصون والعفاف، وما أرى حديثك إلا هذياناً وتخرصاً.

- آمل يا مولاتي ألا يكون صدقاً .

خرجت العجوز، وهي تتلفت يميناً ويساراً كالشاة المذعورة .. تخشى بطش الأميرة الغاضبة.. لم تلتقط أنفاسها إلا بعد أن وجدت نفسها خارج القصر ، غذت الخطى حتى توارت عن الأعين.

جلست الأميرة تسترجع كلمات الكاهنة أو المنجمة ، وتسأل نفسها في حسرة وألم :

- أيمكن أن أكون سبباً في شقاء أبي ؟! كيف وأنا ابنته الوحيدة ، وقرة عينه ، وجنته التي يأوي إليها لينعم بظلالها الوارفة، ومستودعه الذي يبث بين جنباته أسراره وهمومه وأحزانه؟!

أيكون جمالي سبباً في تعاستي، ووصمة عار لأبي؟! ومن ذا الذي يجرؤ على الأميرة ؟!

لا .. لن يكون أبداً .. لن أنتظر حتى تقع الكارثة .. سأفرّ من القدر المحتوم، وأحمى أبي من لظى الفضيحة التي تتربص به ، لابد أن أنهي هذا العذاب ، وأريح نفسي وأبي من شر مستطير.

اختارت وقتاً تهدأ فيه حركة الخدم والحشم داخل القصر .. علقت حبلاً في سقف غرفتها.. وقفت على كرسي وضعته تحت الحبل

المدلى، مدت عنقها الطويل حتى أدخلت رأسها في الحبل.. جعلت تضيق الخناق حول رقبتها ، ركلت الكرسي برجلها .. ابتعد الكرسي عنها فترنح جسدها المعلق في الهواء لحظة ثم سقطت على الأرض.

دخل الملك ليطمئن على ابنته قبل أن ينام فوجدها ملقاة على الأرض وفي عنقها جزء من الحبل الذي انقطع .. جأر بصوت ارتجت له جنبات القصر .. هرع إليه الخدم والحشم ووصيفات الأميرة .. قلّبها الملك ذات اليمين وذات الشمال وهو يئن ويهذي ويناديها ، وهي لا تحرك ساكناً ؛ إذ باتت في عالم غير العالم الذي يعيش فيه .. همس الطبيب في أذنه بكلمات جعلته ينفجر بالبكاء والنحيب، وينخرط في حزن أبدي .

بعد سويعات دفنت الأميرة الجميلة ودفن معها سرها ، وأقيم في القصر الملكي سرادق العزاء الذي توافدت إليه الوفود من كل حدب وصوب، لكن همسات الناس في البيوت، والشوارع، والطرقات لا تتوقف منذ وصل إلى أسماعهم أنباء تلك الفجيعة.

أفاقت الأميرة من الغيبوبة التي ألمّت بها عندما قررت الانتحار لتجد نفسها في حجرة مظلمة، وقد لفت من رأسها إلى أخمص قدميها بالحرير الأبيض، أيقنت أنها مقبلة على سؤال الملكين، ولما لم يأتها أحد قامت من رقدتها فأحست باختناق شديد .. مدت يديها فنزعت الثوب عن وجهها.. تنفست الصعداء وجعلت تحمد الله على نجاتها من موت محقق .. قرعت باب القبر المشرع لكن أحداً لم يسمعها، كادت أن تستسلم للموت الذي أتاها هذه المرة على غير رغبة منها، استعانت بربها وحاولت من جديد قرع باب القبر فسمعها هذه المرة رجل اعتاد أن يمر على المقابر في هذا الوقت ليدعو لأهلها وليسقي النباتات والشجيرات الموجودة فيها .

قرع الباب من الخارج ليتأكد أن ثم أحداً بداخل القبر يستغيث، فلما ترامى إلى سمعه صوت الباب يقرع من الداخل أسرع بكسر باب

القبر، فخرجت الأميرة مسرعة وهي تمزق الثوب عن عنقها، تحاول أن تلتقط أنفاسها المحتبسة، وحين رآها الرجل أغشي عليه.

خرجت من المقابر تتعثر في أكفانها، وكلما رآها أحد حسبها عفريتة من الجن فتراه يجري كالمجنون أمامها حتى يصل إلى بيته فيغلقه على نفسه، أوصدت في وجهها كل أبواب المدينة، حتى باب القصر أغلق في وجهها، لا أحد يصدق أنها الأميرة "نور الصباح" .

وقفت تتأمل باب القصر من الخارج للحظات، وقد اغرورقت بالدموع عيناها، فألقت على القصر نظرة وداع حارة ثم اتجهت إلى خارج المدينة التي خلت شوارعها من المارة .

ظلت تسير على قدميها الحافيتين حتى دميتا من الأشواك والحجارة وحتى أصابها الإعياء فآوت إلى كوخ صغير وارتمت على الأرض أمام بابه .. خرجت من الكوخ امرأة في الخمسين من عمرها .. أصابها الذعر حين رأت هذه الجثة أمام كوخها، فإذا بالجثة تتحرك وتتكلم وتطلب منها الماء لتشرب بعد أن مر عليها يومان لم تذق خلالهما شيئاً من طعام أو من شراب .

أشفقت عليها المرأة، وأدخلتها الكوخ ، قدمت لها طعاماً وشراباً، وألبستها ثياباً من ثيابها، وجلست تسألها عن حكايتها، قصت عليها الأميرة أحداث قصتها من غير أن تخبرها بأنها أميرة وابنة ملك، طلبت منها المرأة أن تظل معها تؤنس وحدتها وتعينها على الحياة الشاقة، وافقت الأميرة وعاشت في كنف هذه المرأة الرحيمة، وفي ذلك الكوخ المتواضع حتى عاد ابن صاحبة الكوخ من رحلة التجارة التي استغرقت شهوراً .

خفق قلب التاجر الشاب للأميرة ، ولمعت عيناه بالحب الطاهر البريء ، سأل أمه عنها، فقصت له قصتها .. طلب من أمه أن تحادثها في أمر الزواج ، وافقت الأميرة ، وعاشت مع زوج لم

يكن يخطر لها على بال حينما كانت في قصر أبيها تترقب في دلال أميرها المنتظر، وفارسها المغوار.

لم تتمرد الأميرة على الحياة الجديدة التي لم تعهدها من قبل، تلك الحياة المفعمة بالكد والشقاء والأمل في غد أفضل .. تلك الحياة البسيطة التي يجوع فيها المرء يوماً فيسأل الله ، ويشبع آخر فيحمد الله.

زوجها رجل قانع بما في يديه ، راضٍ بما قسمه الله له ، لم يكن يحلم في يوم من الأيام بزوجة أجمل ولا ألطف ولا أرق من هذه الزوجة التي اختارها الله له ، وساقها بكرمه إليه ، وهي راضية كل الرضا سعيدة أيما سعادة بهذه الحياة التي شعرت فيها بوجودها، وأحست من خلالها أن لها دوراً في الحياة ينبغي أن تؤديه على أكمل وجه ، وهاهي تشقى وتتعب بعد حياة الترف والدعة التي كانت ترفل فيها .

مرت الأيام هادئة رتيبة ساكنة حتى جاء التاجر الشاب ذات يوم فوجد أحد جدران الكوخ قد تعرض للصدع وأصبح معرضاً للسقوط .. دفعه الخوف على أمه وزوجته إلى أن يسرع في إعادة بناء الكوخ على أساس متين وتوسيع رقعته ، اجتهد ثلاثتهم وشمروا ساعد الجد ، وبينما الأميرة منهمكة في عملها تحاول أن تنزع حجراً كبيراً من إحدى زوايا الكوخ إذ عثرت على بعض الأواني الفخارية تحت الحجر ، مدت يدها لتفتح الإناء فإذا الإناء مملوء بالدنانير الذهبية، صرخت تنادي زوجها فأقبل إليها مهرولاً، ألجمته المفاجأة ، ووقفت أمه في حالة من الذهول لا تكاد تصدق عينيها ، طفق يقبل زوجته ويقول لها :

ـ بوركت يا زوجتي يا وجه الخير يا نهر السعد ؟! لقد تغيرت دنياي مذ عرفتك ، لقد غدت تقبل عليّ بوجه طلق بعد أن كانت تلقاني

بوجه عبوس قمطرير، سأبني لك قصراً يليق بك في المكان الذي تختارين المقام فيه .

اختارت الأميرة موقعاً على حدود المدينة التي يعيش فيها أبوها الملك ، وطلبت من زوجها أن ينشئ لها في هذا المكان قصراً يفوق قصر الملك اتساعاً وعلواً ورونقاً وفخامة.

وذات يوم خرج الملك مع وزيره يتابع أحوال الرعية فإذا بالقصر المنيف الذي يفوق قصره يجذب إليه أنظار الملك ، سأل وزيره في دهشة:

ـ من صاحب القصر؟!

أجاب الوزير :

ـ غريب لا أعرفه يا مولاي.

ـ كيف يقيم في مملكتنا من لا تعرفه أيها الوزير؟! هلم بنا إليه لنعرف قصته ؟!

كانت الأميرة الحسناء على موعدها مع نسيم الأصيل في شرفة قصرها الجديد ، وإذا بها ترى الملك ووزيره قادمين نحو القصر فنبهت زوجها لارتداء أفخم ثيابه ليبدو أمام الملك كأمير من الأمراء النبلاء، نزلت لاستقبال الضيفين ريثما يأتي زوجها .. نظر إليها الملك نظرة طويلة كمن يحاول أن يسترجع صورتها من سراديب ذاكرته المظلمة.. كانت تتمنى أن يتذكرها الملك فمنحته عينيها الصافيتين ليرى في بريقهما صورة ابنته "نور الصباح" لكنها سرعان ما قطبت جبينها، وحولت عنه بصرها حينما لاحت في عينيه نظرة غير أبوية، استسقاها فأسرعت لإحضار الماء لكنها لم تعد بالماء وإنما أمرت خادمتها بتقديم واجب الضيافة، وتوارت عن الأعين .

نزل زوجها في أبهة الأمراء شامخ الأنف مرفوع الجبين، رحب بالملك ووزيره، وتجاذبوا جميعاً أطراف الحديث ، استدرجه

الملك حتى علم أنه لم يكن أميراً بل كان تاجراً من التجار قد بسط له في رزقه، سأله الملك عن السيدة الجميلة التي استقبلته فأخبره بأنها زوجته، سكت الملك هنيهة ثم أومأ إلى وزيره بخائنة الأعين ليتولى عنه مهمة إكمال الحديث، قال الوزير:

ـ أيها التاجر الطيب..من يعش بيننا فلابد أن يخضع لقوانين مملكتنا، وقانون المملكة يرى أن الملك إذا شاء أن يضم إحدى رعاياه إلى حظايا قصره فعلى الجميع السمع والطاعة شاءوا أم أبوا..!

ـ وماذا يعنيني أيها الوزير من هذا القانون؟!

ـ ألا تفهم يا رجل؟! حسبتك لبيباً..!

ـ تعني أن مولاي الملك يريد أن يضم زوجتي إلى حظاياه ؟!

ـ نعم .. وإلا ..!

ـ وماذا بعد إلا ؟!

ـ حوكمت بتهمة الخيانة العظمى، وأخذت منك زوجتك غصباً، وصودرت كل ممتلكاتك.. أما إذا طلقتها بإرادتك ليتزوجها الملك، فستظل بين أولادك تنعمون جميعاً برضا جلالة الملك.. فكِّر جيداً أيها الرجل، وفي الزيارة القادمة سيكون في صحبتنا قاضي المدينة ليتولى إجراءات الطلاق.

خرج الملك ووزيره تاركين زوج الأميرة في هموم وكربات تئن من حملها الجبال الرواسي، دخلت عليه الأميرة فوجدته يبكي كطفل صغير يعجز أن يحمي لعبته .. هدَّأت من روعه وأخبرته بأنها تخفي في جعبتها مفاجأة للملك لم يكن يتوقعها، مفاجأة ستصرفه بكل حال عما عزم عليه .

وجاء اليوم الموعود وأقبل الملك وفي صحبته الوزير ولفيف من النبلاء وكبار الجند وقاضي المدينة ليشهدوا مراسم طلاق جميلة الجميلات لتزف فيما بعد إلى الملك، وقف الجميع في حديقة القصر

بينما جلس الملك على أريكة ذات بساط ناعم وثير، خرج إليهم زوج الأميرة واستقبلهم بترحاب ثم جلس إلى جوار الملك ونادى امرأته فخرجت الأميرة ترفل في ثياب الأميرات فبهرت الجميع بوضاءتها وأناقتها ورشاقتها وسحرها الذي يفوح من أردانها ، فنظرت خلفها ونادت أولادها الأربعة (سعد ، ووعْد ، ومُقَدَّر ، ومكتوب) خرج الأولاد فبدوا للجميع من حسن منظرهم كاللؤلؤ المنثور ضمتهم تحت جناحيها ثم دفعتهم نحو الملك وقالت لهم :

ـ هلم يا أولاد .. رحبوا بجدكم ..!

جحظت العيون ، وفغرت الأفواه ، وخرست الألسنة ، فهب الملك من جلسته واقفاً وقال:

ـ ماذا تقولين أيتها الأمة؟!

ردت بهدوء :

ـ إنما الأمة غيري يا مولاي ، لقد ولدت أميرة وسأظل أميرة مهما قسا عليّ الدهر.

ـ أنا لا أعرف في هذه البقاع ملكاً غيري فكيف تكونين أميرة؟!

ـ انظر إليّ ثانية لعلك تذكرني.. لعلك تذكر طفلتك التي كنت إذا خلوت إليها تجثو على ركبتيك لتحملها على ظهرك بعضاً من الوقت وتجد في هذا سعادة لا تجدها في كل شئون مملكتك، أتذكر يوم أن ماتت أمها ووقفتما تتناجيان بنظراتكما الثكلي عن مصيركما المجهول فما لبثت أن ضممتها إليك في أسى وقلت لها سأكون لك أماً وأباً وأخاً وصديقاً، سأصعد الجوزاء إذا رغبت، وأركب السحاب إذا أمرت، ها أنت ذا جئت تهدم حياتها، وتسلبها سعادتها، وتحرمها من أمل قضت شطراً من عمرها تكلؤه برعايتها، وتقطف من بستانها زهرات طالما روتها بدمائها وغذتها بروحها.

ارتعدت أطراف الملك ومدّ إليها يده المرتعشة وأشار بسبابته وقال :

ـ أنت ..!!

قاطعته ودموعها تنهمر على وجنتيها:

ـ نعم يا مولاي .. أنا ابنتك ، أنا الأميرة "نور الصباح" .

لم يتمالك نفسه جرى نحوها وضمها إلى صدره ودموعه تسيل على وجنتيه، وأزيز صدره المكلوم يشق عباب الصمت المخيم على المكان، وانطلق لسانه يجأر بالحمد والثناء لرب الأرض والسماء على عودة ابنته الأميرة للحياة من جديد، وانطلقت الأفراح والأهازيج في المدينة أربعين يوماً تتوافد فيها الوفود إلى القصر لتهنئة الملك على سلامة الأميرة وعودتها للحياة ولحضن أبيها بعد مرور عشرين عاماً.

******

شجرة الجميز

قديمة هي قدم القرية .. شامخة شموخ الجبال .. باسقة تشق أفنانها عباب الفضاء .. تحنو على ما حولها من أشجار أو شجيرات كما تحنو الأم على صغارها فتضمهم تحت جناحيها في عطف وحنان ووقار.

تجود على أصحابها من البشر بثمارها الحلوة الطازجة في العام مرتين، وربما ثلاث مرات.. كثيراً ما نسجت حولها الأساطير والحكايات العجيبة التي لا يفتأ الآباء والأمهات يرددونها على مسامع الأبناء حين يلتفون حول نار المدفئة في ليالي الشتاء ..!!

كان من الأشياء التي باتت تعلق بالأذهان ، وتلوكها بين الحين والحين ألسنة أهل القرية أن من غرس شجرة جميز لا يمكنه أن يأكل من ثمارها ..! ومن سقط من فوقها يدركه الموت في الحال حتى وإن كانت سقطته هينة .

هذه الشجرة الكبيرة تقع على الحد الفاصل بين حقلين، أحد الحقلين لفلاح بسيط يدعى "شحاته الغنام"، وهو رجل أربعيني أسمر اللون، نحيف الجسم، يميل بطبعه إلى العزلة والانطواء؛ لأنه يخشى الحسد ، ويغار على بيته غيرة عمياء .

والحقل الآخر لفلاح فقير يدعى "عوض المغربي" .. وهو رجل يصغر "شحاته" بعامين لكنه رغم فقره يبدو وسيماً وأنيقاً ، ولديه القدرة على جذب الانتباه بحسن كلامه ولباقة حديثه .. نشأت بين الأسرتين علاقات محبة، ووشائج قربى، وأواصر جوار غير عادي، فغدت الأسرتان كالأسرة الواحدة ، ولم لا ؟! ألم يشتركا معاً

في ثمار هذه الشجرة التي حنت عليهما، وألّفت بين قلبيهما، وكانت السبيل لتوحيد جهودهما ؟!

كانت هناك بعض الطقوس لابد من أدائها قبل الحصاد .. يخرج "شحاته" ، و"عوض" في ظلام الليل، معهما مصباح صغير يعمل بالكيروسين .. يصعدان شجرة الجميز، ويضعان المصباح على أحد الأغصان، ثم يخرج كل واحد منهما سكيناً من جيبه ، ويشرعان في تفتيح الثمار ثمرة ثمرة ؛ ليزداد حجمها ، ويحلو طعمها ..!

وبعد أيام يصعد الرجلان إلى الشجرة لجني الثمار .. هنالك تتقاسم الأسرتان ما تجود به الشجرة من ثمار ، فتأخذ كل أسرة نصيبها الذي قدّره الله لها ، ثم تحمله إلى المدينة المجاورة كي يتم بيع هاته الثمار.

ذات ظهيرة عاد "شحاتة" من الحقل ليجد جاره في الحقل وشريكه في شجرة الجميز خارجاً من داره ، ولم يكن في البيت أحد سوى زوجته ، لعبت برأسه الوساوس، وذهبت به الظنون كل مذهب، وراح يحدث نفسه :

ـ لماذا أتى عوض إلى داري في هذا الوقت رغم أنه يعلم بأني في هذا الوقت أكون في الحقل ؟ وهل هذه أول مرة يأتي فيها إلى داري؟ أم أنه اعتاد المجيء في مثل هذا الوقت ؟ لابد أن أتبين الأمر .

دخل على زوجته ..أغلق باب الحجرة ، ثم نظر إليها نظرة حادة، وسألها :

ـ ما الذي كان يفعله عوض في هذا البيت ؟!

أجابت بتلعثم :

ـ جاء ليسأل عنك .

نظر إليها والشرر يتطاير من عينيه، وقال:

ـ هو يعلم أني في الحقل .. لماذا جاء إلى هنا؟! هل بينك وبينه شيء؟

نظرت إليه في غضب وقالت:

ـ ماذا تقول يا شحاته؟ هل جننت؟ أنت تعرفني وتعرفه.. لماذا كل هذه الوساوس؟!

كظم غيظه، وحاول أن يتناسى ما حدث، فقد تكشف له الأيام ما كان مخبوءًا.

مر أسبوع ووجدت جثة "عوض" ملقاة على الأرض إلى جوار شجرة الجميز، خرجت القرية تتأمل الحادث الأليم فأيقنوا جميعاً بأنه سقط من فوق شجرة الجميز؛ لأنه وقت التختين.

لم يساور الشك أحداً في احتمال وجود جريمة وراء مقتل هذا الرجل.

مرّ على الحادثة عشرون عاماً، ونسيت القرية ما حدث لكن شخصاً وحيداً كان يشعر بالرعب والفزع كلما مر على شجرة الجميز، وينظر إليها بهلع كأنها تتوعده، ومنذ مقتل شريكه لم يستطع صعود هذه الشجرة فكان أولاده ينوبون عنه في هذا الأمر.

بدأت تستولي على شحاته في الأيام الأخيرة فكرة الانتحار فحاول خنق نفسه لكن أبناءه أدركوه، وأصبحوا يتناوبون في رعايته وأخذ الحيطة، لكنه غافلهم ذات ليلة، وأحضر حبلاً قوياً ووضعه في جيبه.. أخذه أحد أبنائه معه إلى المسجد لصلاة الفجر، لكنه تركهم أثناء الصلاة واتجه إلى شجرة الجميز، صعد الشجرة في هدوء، ربط طرف الحبل في فرع من فروعها، والطرف الآخر لفه بإحكام حول عنقه، ثم ترك نفسه للهواء، ظل في الهواء يتأرجح، بدأ ضوء النهار يتسلل في هدوء .. رآه أحد الفلاحين معلقاً في الهواء صرخ بأعلى صوته خرجت القرية على هذا الضجيج فهالهم ما رأوه.. بكى الرجال وصرخت النساء لهول المشهد الذي رأوه ؛ ما كان أحد يتوقع لهذا

الرجل تلك النهاية المأساوية ؛ فقد كان هادئاً رزيناً، لا يتعامل مع الناس إلا بحذر، ترى ما السر الذي وراء انتحاره؟ لا أحد يعلم ..!!

وتمضي الأيام ويتغير الناس لكن شجرة الجميز مازالت واقفة صامدة تعطي ثمارها في موعدها، وتكتم سرها وسر الآخرين في جوفها في حكمة ووقار ليس لهما نظير.

****

ليلة حالكة

في ليلة من ليالي الشتاء الحالكة خرجت وشقيقيَّ لري حقل الذرة كانت الساعة تقترب من منتصف الليل، لم يكن خروجنا في هذا الوقت باختيارنا ولكنه دورنا في استخدام الساقية، فالحوض الزراعي كبير، وكل فلاحٍ له دوره في الري باستخدام هذه الساقية التي اشترك الفلاحون جميعاً في إنشائها.

الساقية بجوار الترعة وحولها أشجار كثيفة تزيد الليل ظلمة.. يبدو أننا في الليالي الأواخر من الشهر الهجري، فكّ من كان قبلنا ماشيته من الساقية، وعلّقنا ماشيتنا، ووزعنا العمل فيما بيننا، كان نصيبي أن أجلس وحدي إلى جوار الساقية، أتابع الماشية، وشقيقيَّ يتابعان الماء في الحقل حتى لا تتمزق الحدود الفاصلة بيننا وبين الجيران فترتوي أرضهم دون قصد منا فيحدث التلف لزرعهم لأنهم رووا قبلنا.

الحقل يبعد عن الساقية بحوالي نصف ميل تقريباً، وكان الذرة عالياً بارتفاع مترين تقريباً، بمعنى أنني لا أستطيع رؤيتهما ولا أتمكن من سماع صوتيهما..!!

ظللت أدور وراء الجاموسة المعلقة في الساقية، أحثها على السير كلما توقفت كي ننجز عملنا.

اعترني قشعريرة فجأة، أحسست أن شيئاً خفياً يدور من خلفي، أخشى أن أنظر بطرف عيني فأرى ما يفزعني، استعذت بالله، وقلت أشغل نفسي بالتفكير في محاضرات الغد، ففي الصباح سأذهب إلى الكلية لحضور المحاضرات المقررة، ثم الذهاب إلى المكتبة لإعداد بحث قد طلب مني.

وبينما أدور خلف الماشية لمحت رجلاً يرتدي قميصاً أبيضاً من الدمور وعليه صديري من قماش حريري أبيض بخطوط سوداء رفيعة، نزل الرجل على صخرة في الترعة وضعها أحد الفلاحين ليتمكن من الوضوء أمام مصلى صغير محاط بطوب لبن بارتفاع نصف متر تقريباً، ومفروش ببعض الحشائش والقش.

تذكرت أنني لم أصل العشاء؛ فقد نمت بعد صلاة المغرب، ولم يوقظني إلا أخواي وهما يستعدان للمجيء إلى هنا، فناديت الرجل:

ـ انتظرني حتى نصلي العشاء في جماعة.

لم يرد عليّ وظل منهمكاً في وضوئه، تركت الساقية وذهبت نحوه لأتوضأ وأصلي خلفه..ما إن اقتربت من المكان حتى وجدت الرجل يقفز في الترعة بسرعة مذهلة، ولم يظهر منه شيء، فعدت من جديد إلى الساقية، فظهر لي مرة ثانية، فظننت أنه كان يلاعبني أو يريد تخويفي فعدت إليه ثانية، فقفز مرة ثانية في الماء، هنا وجدت شعري يطقطق، فأسرعت عائداً إلى الساقية.. أحسست بأن الأشجار الموجودة على شاطئ الترعة تتساقط من خلفي شجرة وراء شجرة، لدرجة أني أحسست بأن فروعها تتساقط على أعقابي، تركت الساقية وجريت نحو شقيقيّ، شعرت بأن حقول الذرة تتساقط أعوادها عن اليمين وعن الشمال، أطلقت ساقيّ للريح حتى وصلت الحقل وناديت أخويّ بصوت مرتفع فيه شيء من الخوف والفزع، خرجا إليّ سويًا، وأخبراني بأن الحقل أوشك على الانتهاء.. قصصت عليهما ما شاهدته منذ لحظات، قال أحدهما متهكماً:

ـ ما شاء الله على الرجال.. !! كيف تترك الجاموسة وحدها في الساقية؟! لابد أنهم لصوص أرادوا سرقة الجاموسة فقاموا بتخويفك حتى يتمكنوا من حلّ الجاموسة وأخذها.

فقلت بانكسار:

ـ وما العمل؟

رد بعنجهية:

- أنا سأذهب لهؤلاء الأشرار ألقنهم درساً لن ينسوه، حتى يكونوا عبرة لغيرهم.

أسرع الخطا نحو الساقية ومشيت وأخي الثاني على مهل خلفه.

ما إن وصل شقيقي إلى الترعة حتى وجد أمامه كلباً ضخما كأنه حمار يسد الطريق عليه، نظر إلى الكلب في غيظ، ونظر إليه الكلب في غيظ، وجد عيني الكلب تختلف عن عيون الكلاب، وحجمه يختلف عن أي حجم لكلب مهما كان حجمه كبيراً.

جف ريقه، ولصق لسانه في سقف حلقه ولم يستطع النطق بكلمة، والكلب يتأمله بنظرات استعلاء حتى وصلنا إلى المكان فاختفى الكلب فجأة، ومشينا نحو الساقية، جلسنا سويا بجوار الساقية، شعرت بالأمان بعض الشيء، فطلبت من شقيقي الأكبر أن أنام قليلاً في المصلى..!

وجدت خرقة سوداء ملفوفة في المصلى وضعت رأسي عليها ورحت في نوم عميق..!

استيقظت على صوت الرجل الذي يأتي دوره بعدنا في السقيا، كانت الساعة تقترب من الثالثة فجراً، أيقظني الرجل حتى أتجهز لصلاة الفجر، يريد أن يصلي الفجر معي في جماعة.

نزلت إلى الصخرة التي كان يقف عليها الرجل الغامض، وتوضأت في الترعة، ونزل بعدي الرجل توضأ، وتجهزنا للصلاة، ما إن انتهى المؤذن حتى أقمنا الصلاة، ووقفت إماماً للرجل، وأثناء الركوع وجدت الرجل ينتفض انتفاضة ويقفز من مصلاة إلى خارج المصلى، فسلمت وسألته لماذا قطعت صلاتنا بهذه الطريقة، قال والفزع يتملكه:

- انظر في المصلى .. ألم ترهذا الثعبان الضخم؟!

فنظرت فإذا بثعبان أسود طويل يتسحب من المصلى متجهاً إلى الترعة حتى نزل في الماء، نظرت ثانية في المصلى لأبحث عن الخرقة السوداء الناعمة التي كنت أنام عليها فلم أجد شيئاً فعلمت أني كنت واضعاً رأسي كل هذه المدة على الثعبان دون أن أدري.. بدأ الخيط الأبيض يظهر في الأفق وبدأت تباشير الصباح تبعث الأمن في النفوس، أخذنا أشياءنا وعدنا إلى منزلنا قبل الخامسة صباحاً.

****

لعنة القطط

منذ صغري وأنا أخشى القطط، أو كما يقولون عندي فوبيا القطط .. قد يكون مرجع ذلك أن عائلتي عندما كنت طفلاً كانوا يخوفونني بالقطط كي أتوقف عن البكاء المتواصل، غير أن ذلك كان في سنواتي الأولى التي لم أتذكر منها شيئاً، ولعل السبب الحقيقي يرجع إلى ما قصته والدتي عليّ من حكايا الجن الذي كان يتشكل على هيئة القطط.

وكان مما قصته عليّ وأنا صغير أن شقيقها كان مغرماً بصيد السمك، وخاصة في موسم الجفاف، يقيم السدود الطينية في الترعة وينزح منها الماء ليتمكن من الإمساك بالسمك، ولا يعود إلى بيته إلا بعد أن يحصل على كمية وفيرة منه.

وبسبب رائحة السمك الدائمة في البيت، فالقطط لا تنقطع عن البيت؛ لأنها تحب هذا النوع من الطعام، وذات ليلة تسلل قط وسرق سمكة من السمك المعدّ للعشاء..!!

هاج الرجل وماج وثار ثورة عنيفة وأقسم لو رأى هذا القط ليقتلنه، وذات مساء رأى قطاً يتسلل إلى الغرفة، وكان قد جهّز نفسه وأعدّ عدّته فأغلق الحجرة عليه، وظل يضرب القط حتى سقط ميتاً، خرج من الغرفة حاملاً جثة القط المقتول ليلقي بها بعيداً عن البيت..وبينما هو يحملها اكتشف بأنها قطة وليس قطاً، فأدرك أنه أخطأ ؛ لأنه كان يعلم أن الذي سرق كان ذكراً، وليس أنثى..!

لكنه لم يندم على فعلته ونام في هذه الليلة هادئ النفس، مستريح البال؛ لأنه انتقم لنفسه من القطط عموماً، ولم يحنث في قسمه الذي أقسمه.

كانت الإضاءة خافتة حينما استيقظ من نومه منتصف الليل، نظر عن يمينه وعن شماله فوجد زوجته وأولاده يغطون في نوم عميق، رأى رجلاً في وسط الدار يدعوه للخروج، ظن أن الباب الخارجي للدار لم يغلق فهب من مرقده ليغلق الباب الكبير، فوجد نفسه يمشي في طريق طويل مظلم وهذا الطريق ينحدر إلى أسفل، تعجب ..!! لم يكن باب الدار بعيداً لهذه الدرجة، وظل يسير في نفق مظلم وأمامه ذلك الرجل الذي رآه منذ قليل في وسط الدار، لكن هذا الرجل ظل صامتاً لا ينطق بكلمة حتى وصلا إلى مكان فسيح.. اختفى الرجل فجأة، وظل هو حائراً في هذا المكان الذي يراه لأول مرة، من بعيد لاح له قصر كبير، ذو قبة زبرجدية ضخمة، وأمامه حديقة كبيرة، شعر بالظمأ في هذا المكان الموحش، فقرر الاقتراب من هذا القصر لعله يحظى بشربة ماء تروي ظمأه.

ما إن اقترب من المكان حتى وجد رجالاً كثيرين يتجمعون حول شيء ملقى على الأرض.. اقترب أكثر ليرى على الأرض شابة قتيلة مضرجة في دمائها ماتت وجنينها في بطنها، فجعل يسأل من حوله عما يرى:

- أهو حادث؟! أم ....ماذا؟!

لكنه لم يجد جواباً من أحد، ينظرون إليه شذرا ثم يتركونه.

أقبل عليه رجلان.. اقتدياه إلى ما يشبه المحكمة..وجد امرأة ثائرة نافرة منكوش شعرها، ممزقة ثيابها، تصرخ وتولول بكلمات غير مفهومة، وتمد يدها من بعيد نحوه تريد أن تصل إليه لتمزقه، وهو واقف لا يدري ما الذي يحدث..!

نظر إليه أحدهم وقال:

- أرأيت جريمتك أيها الإنسي؟!

أجاب باندهاش:

- أية جريمة؟!



ـ هذه المرأة التي قتلتها؟

ـ أنا لم أقتل أحداً..!!

ـ أنت تكذب.. لقد قتلت الليلة هذه المرأة الحامل، والتي تراها الآن تصرخ أمها.

هنا تذكر..فأجاب:

ـ ولكني قتلت الليلة قطة..!

مازال صوت الأم يصرخ ويطغى على صوت المحكمة، فأمرها القاضي أن تهدأ، وإلا أخرجها من الجلسة، ثم وجه الحديث إليه ثانية:

ـ هل القطة التي قتلتها الليلة آذتك في شيء؟!

فأجاب والرعب يتملكه:

ـ لا.. ولكنها تشبه قطاً قد أذاني.

ـ فلماذا قتلتها إذن؟! أتأخذها بذنب غيرها؟!

لم يستطع الإنسي الجواب ووقف تائهاً لا يدري ماذا يقول، هنا التفت القاضي إلى السيدة والدة القتيلة وقال لها :

ـ ما الحكم الذي يرضيك في هذا الإنسي؟

أجابت ونار الغضب تنتشر على وجهها:

ـ الذي يرضيني أن أقتله هو وأولاده جميعاً..!

نظر إليها القاضي بحكمة وقال:

ـ ولكنه قتل خطأ..لم يكن متعمداً.

فكرت المرأة وتشاورت مع أهلها، ثم قالت بحدة:

ـ لو قتلته أرحته.. ولكن أرى أن يظل حياً ليرى أبناءه جميعاً يموتون من حوله ليشعر بالحسرة التي أحترق بها.

كان أولاده في ذلك الوقت أربعة اثنان من الذكور واثنتان من الإناث.

قال القاضي:

ـ وما ذنب الأولاد؟!

أجابت:

ـ وما ذنب ابنتي؟ وما ذنب أولادها الذين ماتوا معها؟ لابد أن يحترق بنار فقدانهم كما احترقت أنا بنار ابنتي وأولادها.. ودعني أيها القاضي أنفذ هذا الحكم بنفسي، حتى إذا رزق بأطفال آخرين سوف أقوم بقتلهم حتى يصل العدد إلى سبعة؛ فلن يرضيني في ابنتي وأولادها أقل من ذلك.

تداول القاضي مع مستشاريه، ثم نطق بالحكم:

ـ أنت أيها الإنسي مدان، ولقد قررت محكمة الجن أن نقتل من أولادك سبعة، ولكن رأفة بك، ومراعاة لجهلك، قررنا أن نأخذ واحداً ونترك لك ما بعده، ثم نأخذ الثاني ونترك لك ما بعده، إلى أن نصل إلى العدد سبعة.

فجاة وجد نفسه في وسط داره، دخل على أولاده ليطمئن عليهم فوجدهم يغطون في نومهم كما تركهم، ظن أنه كان يحلم، لكنه سأل نفسه عندما استيقظت وجدتني في وسط الدار رغم اني كنت نائماً في الغرفة ما الذي أخرجني؟ هل مشيت وأنا نائم؟ لم يحدث ذلك لي من قبل.

بعد شهر من هذه الحادثة مرض ابنه الأكبر وكان شابا في العشرين من عمره، مع أن صحته كانت قوية، دار به عند كثير من الأطباء فلم يستطع منهم أحد أن يشخص حالته، وأصبحت حالته في تدهور دائم، لم يطل به المرض أكثر من شهر ومات هذا الشاب.

تحكي والدتي وكانت تقف على غسله أنها رأت كفاً مرسوما على ظهره بأصابعه الخمس بدماء متجمعة تحت الجلد، وظل الامر هكذا يموت من عليه الدور مهما كانت سنه بنفس الطريقة ونفس العلامة، ويعيش من بعده، إلى أن بلغ عدد المتوفين سبعة، ومن نعم الله عليه أن عاش له سبعة من البنين والبنات

ليلة القدر

كان "إسماعيل" قد عودته أمه على صيام رمضان منذ أن كان في الخامسة من عمره ، واعتاد أيضا على الصلوات الخمس يؤديها في أوقاتها في المسجد، وتعهدت بمتابعته حتى لا يفتر أو يتعرف على رفقاء سوء فيبعدونه عن الصلاة ، فإذا ما سها عن فريضة ذكرته ، وظلت وراءه باللين حينا وبالشدة حينا حتى اعتاد على الصلوات فكان يؤديها بعد ذلك دون رقيب ، وذات ليلة من ليالي رمضان استيقظ من نومه فوجد أمه وأخته قائمتان تصليان في جوف الليل، فسألهما بعد أن سلما من صلاتهما :

ـ ماذا تصليان؟ ألستما قد صليتما العشاء قبل النوم ؟

فأجابت أمه وقد أشرق وجهها بالنور:

ـ هذه ليلة القدر يا "إسماعيل" ، قم وتوضأ لتصلي معنا .

فسألها "إسماعيل" عن ليلة القدر ماذا فيها من خير عن بقية الليالي فقالت له أمه:

ـ ألست حافظاً للقرآن ؟

فرد إسماعيل بلهجة الواثق :

ـ الحمد لله .

فقالت له:

ـ ليلة القدر مذكورة في القرآن بأنها خير من عبادة ألف شهر .

فشمر وتوضأ وصلى بهما حتى وقت السحور ، فقالت له أمه :

ـ اصعد يا إسماعيل كي توقظ زوجة أخيك لتتناول معنا السحور .

كان البيت بالطوب اللبن يعيش أفراد الأسرة في حجرتين، والأخ الأكبر وزوجته يعيشان في حجرة فوق السطح تعرف في الريف بالمقعد، وكان أخوه يذهب إلى عمله في أول الأسبوع، ويعود في نهاية الأسبوع، وزوجته تنام في غرفتها ، لكنها تأكل وتشرب مع الأسرة .

صعد "إسماعيل" السلم حتى وصل إلى نهايته ثم رأى عجبا نظر في السماء فوجد نجمة ساطعة فوق رأسه وأخذت النجمة تكبر وتكبر، وتقترب من رأسه حتى بلغت في استدارتها حجم الغربال وهبط من هذه الدائرة عمود من النور حتى بلغ سطح المنزل .. تسمرت قدماه ووقف يتأمل هذا النور الباهر الرهيب ، الذي يكاد يعشي العين من شدة توهجه، وأحس بقشعريرة رجت جسمه كله فصرخ بأعلى صوته :

ـ أمي .. أمي .. أختي ..! تتـ .... ، لم يستطع النطق مرة ثانية، فوجد النور قد انطفأ فجأة مع خروج زوجة أخيه من غرفتها بعد أن سمعت صراخه، فسألته وقد بدت ملامح الضيق على وجهها كأنما تنهره :

ـ لماذا تصرخ ياولد ؟

قال وهو يرتعد فرقا وخوفا :

ـ لا شيء .. أنا... أنا كنت أريد أن تستيقظي للسحور .

وبينما زوجة أخيه تسأله إذ بأمه وأخته تصعدان السلم لاهثتين، وتسألانه في حيرة عما أخافه وجعله يصرخ لكنه لم يرغب في الحديث عما أرهبه وأخافه أمام زوجة أخيه، إذ كان يراها شيطانا ولا يصح أن يتحدث أمامها فيما رآه ، وفي الصباح سألته أمه عما أخافه بالأمس فروى لها ما رآه ، فابتسمت في هدوء وقالت :

ـ هذه هي ليلة القدر يا شيخ "إسماعيل" جاءت لك وحدك ، وكانت أبواب السماء مفتحة لك لو دعوت بأي دعوة لاستجيبت دعوتك في الحال .

ـ ولماذا اختفت فجأة ؟

ـ اختفت لأن زوجة أخيك خرجت في هذا الوقت ، وأنت تعرف أنها لا تصلي .

أحس إسماعيل بالفرحة لأنه الوحيد في أسرته الذي رأى ليلة القدر، وحزن لأنه لم يستطع الدعاء ، وظلت في عقله زوجة أخيه هي السبب في فوات هذه الفرصة عليه وعلى أمه وأخته ، كان يتمنى لو استطاع أن يتمالك نفسه ويدعو بما شاء ، ويتمنى أيضا أن لو كانت أمه وأخته قد شاركتاه في هذا الإحساس الجميل والرؤية المبهجة ، كل هذا كان يمكن أن يحدث لو لم تخرج زوجة أخيه في هذا الوقت .

****

نيران البخل

أهالي قريتنا يتسمون بسمات أصيلة، وصفات نبيلة، قلما تجدها في غيرهم من المجتمعات، فهم مجبولون بفطرتهم على الكرم والتعاون والترابط والتكافل، تراهم في مسراتهم على قلب رجل واحد يفرحون ويمرحون ويضحكون ويغنون في نشوة غامرة ، وفي أحزانهم يكونون كالجسد الواحد إذا اشتكى منه عضو تداعى له سائر الجسد بالسهر والحمّى، تراهم إذا مرض أحدهم عاده كل أهل القرية، وإذا مات خرج في جنازته شيوخ القرية وشبابها وأطفالها، وإذا ألمّ بقريتهم خطب، أو نزلت بهم نازلة يتسابقون في دفع الأذى عن قريتهم، بل عن أنفسهم بدافع من الإيثار .. ذلك الخلق النبيل الذي امتدحه الله تعالى في قرآنه الكريم، وتلك الصفة الفضلى التي تجعل أحدهم يستعذب الألم الشديد في سبيل راحة أخيه المسلم .

إن معاني الشهامة والمروءة والنجدة تتجسد في أرقى صورها وأسمى معانيها حينما يهبون هبة رجل واحد لإنقاذ ماشية من المواشي قد سقطت في بئر الساقية، بل تتجلى هذه المعاني فيهم حينما يسمعون صرخة تسري مدوية تشق فضاء القرية، وتهتك حجاب الهدوء الذي يتوج جبينها الأغر..فينطلقون في سرعة البرق نحو ذلك الصوت المستغيث فإذا بأعمدة الدخان تتصاعد من جنبات المكان فتخطف أبصارهم، وألسنة النيران تتراقص يمينًا وشمالًا في خيلاء تلتهم كل ما يلاقيها دونما شبع، وأسطح المنازل في الريف مليئة بالحطب الجاف، وقش الأرز، والبرسيم الجاف، وغيرها من المواد التي تساعد على استمرار الحريق، بل تفتح شهية النار وتثير فضولها في طلب المزيد، في هذه الأثناء لا يستطيع أحد أن يرد

هجمتها الشرسة، ولا أن يصد ألسنتها الجائعة المندلعة في كل اتجاه ، هنالك تلقى شباب القرية يلقون بأنفسهم وسط هذه النار التي تأزّ كأزيز المرجل لا يخشون لهيبها، ولا يرهبون الموت الكامن في أحشائها ، كل ما يشغلهم أن يطفئوا سعيرها ، وأن ينقذوا ما طوته تحت خبائها .

ولست بناسٍ ذلك اليوم المشهود الذي اندلعت فيه الحرائق تلتهم المنازل في شرِّه حتى أتت على عشرين بيتاً في القرية، كان هذا الحريق ثالث أيام عيد الفطر المبارك، يومها كنت جالسا مع بعض أصدقائي في المسجد نتدارس بعض آيات القرآن، وكانت من عادتنا أن نتبع صيام رمضان بصيام ست من شوال ، على أن تبدأ هذه الأيام الست ثاني أيام عيد الفطر.

وبينما نحن جالسون إذ سمعنا صراخاً، فأسرعنا إلى مصدر الصوت، فرأينا حريقًا يشب في أحد المنازل، كانت الحرارة في ذلك اليوم شديدة تكاد تصل إلى خمسين درجة مئوية، وكانت عقارب الساعة تقترب من الثانية بعد الظهر، أقبل شباب القرية من كل حدب وصوب فإذا برياح شديدة تهب كالعاصفة تقلب اتجاه النار إلى المنزل المجاور، والنساء يحملن الأواني والطسوت والجرار الممتلئة بالماء، ويصعدن بها إلى الأسطح، والرجال في حومة الحريق يصارعون النيران المتأججة، ويحاولون أن يحجموها في مكان واحد حتى يستطيعوا التعامل معها، لكن قوة الرياح عصفت بكل المحاولات، فقررت أنا وأصدقائي أن نتصل برجال الإطفاء أقبل رجال الإطفاء بسيارتهم العتيقة بعد أن كلّت عزائمنا وضعفت قوانا، لكنهم لم يجدوا مصدرا للماء فأخبرونا بأن معهم خراطيم المياه، وعلى أهل القرية أن يحملوا هذه الخراطيم إلى الترعة التي تبعد عن مكان الحريق مسافة نصف كيلو متر تقريبا، جرى بعض الشباب يحملون هذه الخراطيم

ليصلوا بها إلى الترعة والبعض الآخر مازال يحاول إخماد الحريق بما أوتوا من قوة.

كان الأمر عسيرًا.. لقد انتقلت ألسنة اللهب إلى بيت ثالث ورابع وخامس، وسيارة الإطفاء مازالت معطلة، هنالك ناديت على زملائي وأخبرتهم بأننا لا طاقة لنا اليوم بهذا الحريق الرهيب، ولا ملجأ لنا إلا إلى الله، وطلبت منهم أن نسجد لله وأن نتضرع إليه سبحانه عسى أن يفك كربنا، ويرفع عنا هذا البلاء، سجدنا جميعا ونحن نحمل خراطيم المياه ضارعين إلى ربنا طالبين منه العون والمدد .. ثم نهضنا نستبق حتى أوصلنا الخراطيم إلى مصدر المياه ، لكن السيارة مازالت معطلة لأنها في الغالب لا تعمل فشباب القرية في كل الحرائق يطفئونها قبل مجيء سيارة الإطفاء ، وهذا الحادث المروع هو أول اختبار حقيقي لرجال الإطفاء ولسيارتهم غير الجاهزة .

أحس رجال الإطفاء بخطورة الوضع فاتصلوا بسيارة المركز التي أتت على الفور كانت الحرائق قد انتشرت في المنازل ، واتسع الرتق على الراتق ؛ فقد كان الحمام يتنقل من منزل إلى منزل وهو يحمل النار في جناحيه مما ساعد على انتقال الحريق إلى أكثر من مكان وأصبح من الصعب احتواء هذه الحرائق المتوالية السريعة .

تشجع رجال القرية عندما وجدوا سيارة إطفاء مجهزة وقد بدأت عملها ، فعادت إليهم حماستهم، واستعرت جذوة نخوتهم، وهبوا في خفة ونشاط بعدما كادوا يستسلمون لهذا الدمار المحدق، والهلاك الذي بات مؤكدا، نصف ساعة من العمل الدءوب من رجال الإطفاء ومن رجال القرية وأطفالها ونسائها حتى أطفئت آخر شرارة من شرر هذا الحريق المدمر وتصافح الجميع، وعادت بعدها سيارة الإطفاء إلى مقرها، وعاد رجال القرية إلى بيوتهم مزهوين بالنصر والقدرة على اجتياز الأزمات ..

تساءلت بيني وبين نفسي عن سر انتقال النار من مكان إلى مكان بعيد دون أن تقترب من بعض البيوت المجاورة، الناس يقولون الحمام هو السبب، لكنني لم أقتنع بهذا التعليل، بعد بحث وتمحيص وجدت أن أهالي البيوت التي شبت بها النار لم يخرجوا زكاة الزروع في هذا العام، والذي لفت نظري إلى هذا الاستنتاج أنني وجدت محصول الذرة فوق أسطح المنازل التي شبت بها النار هو الأكثر تضررًا، فسألت بعضهم:

ـ هل أخرجت زكاة الذرة يوم حصاده ؟!

فأجاب:

ـ كلا..!!

فمررت على بقية البيوت المحيطة وسألتهم ذات السؤال فوجدت أن النار كانت تبعد عن البيت الذي أخرج صاحبه الزكاة، فاغتنمت الفرصة وأعددت خطبة عن الزكاة وألقيتها في المسجد الكبير للقرية.. تذكر المصلون الحادث المفجع، وأيقنوا أن هذا الحادث كان حربًا من الله على مانعي الزكاة، ومنذ ذلك الحين أصبح أهالي البيوت المحترقة هم أحرص الناس على إخراج الزكاة سواء كانت زكاة فطر أم زروع وثمار.

****

السيرة الذاتية للمؤلف

الاسم : إبراهيم عبد العزيز إبراهيم سمري .
الشهرة : إبراهيم السمري.
العنوان : شبرا بيل ـ مركز السنطة ـ محافظة الغربية ـ جمهورية مصر العربية.

حاصل على ليسانس آداب قسم اللغة العربية 1989م.

حاصل على تمهيدي للماجستير في علم اللغة 1992م، والماجستير 2017م .

الوظيفة: معلم خبير لغة عربية، وتربية إسلامية بالمرحلة الثانوية.

المؤلفات :

1 ـ أنا العربي (ديوان شعر فصيح) .
2 ـ الزهرة الحائرة (ديوان شعر فصيح) .
3 ـ اتجاهات النقد الأدبي العربي في القرن العشرين .
4 ـ أبو تمام ، حياته وعصره.
5 ـ الإسلام يشرق من الغرب .
6 ـ العنصرية وموقف الإسلام منها.
7 ـ القدس وآفاق التحدي.
8 ـ الساقية (رواية).
9 ـ سارة (رواية).
10 ـ ابتسامات القدر (رواية).
11 ـ القاتل الخفي (مجموعة قصصية).



12 ـ الدعوة الإسلامية في المرحلة المكية (دروس تربوية للدعاة المعاصرين).
13 ـ الجهاد في الإسلام (مفهومه ، وأنواعه ، وأهدافه ، وضوابطه).
14 ـ معالم الفكر الاقتصادي عند الدكتور محمد شوقي الفنجري.
15 ـ تنمية المجتمع من منظور إسلامي.
16 ـ منظومة القيم الإسلامية ودورها في تأكيد التعايش في المجتمع المعاصر.
17 ـ النظام السياسي الإسلامي، أسسه، وآلياته، وموقفه من الديمقراطية.
18ـ عقيدة التوحيد وأثرها في إتقان العمل.
19 ـ الإيجاز والرمز في لغتنا الجميلة.
20 ـ حب الوطن والانتماء إليه من منظور إسلامي.
21 ـ الغلو والتطرف الفكري أسبابه ومظاهره ونتائجه.
22 ـ الأزهر ماضيه وحاضره ومستقبله.
23 ـ التحديات المعاصرة التي تواجه الدعوة الإسلامية وكيفية مواجهتها.
24 ـ حقوق ذوي الإعاقة في الإسلام.

البريد الإلكتروني: eb_semary@yahoo.com
الهاتف المحمول : 01226487135 / 01023439680

الجوائزالتي حصل عليها:
1 ـ جائزة مسابقة النفس المطمئنة للبحوث التربوية بموقع الألوكة عن كتاب: (الدعوة الإسلامية في المرحلة المكية)2008م.

2 - جائزة عصير الكتب عن عرض كتاب (عدالة وفن) لتوفيق الحكيم2010م.
3 - جائزة المستشار الدكتور محمد شوقي الفنجري 2011م عن بحث (الإسلام وتنمية المجتمع).
4 - جائزة المستشار محمد شوقي الفنجري 2015م عن بحث: (معالم الفكر الاقتصادي عند شوقي الفنجري).

محتوى الكتاب